

الروايات النيرانية

عز قاسم

سجلها وغانم

كلا يمرضها ويحللها

مالك كول

تعريب وتعليق

الاستاذ محمد المحمدوي



دار الشافعية

الرّوایاتُ التاریخیّة
عن تأسیس

سجلّ ماسه وعفانه

كما يعرضها ويحللها
ماكدكوك

تعريب وتعليق
الاستاذ محمد الجمد اوي



32 — 34 شارع فكتور هيكو
ص. ب. 4038 — الدار البيضاء
الهاتف : 653.46 — 623.75

حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم :

كتب هذا البحث التاريخي الاستاذ دانييل ماك كول استاذ الدراسات الانسانية ، والعضو المشارك في وضع الدراسات الافريقية بجامعة بوسطن ماسا تشوستس بأميركا ، وقد عرض فيه اقدم الروايات التاريخية وحدثها عن تأسيس سجلامة وغانة وناقشها ، وقد نشر النص الانجليزي لهذا البحث ضمن البحوث التاريخية التي انجزتها (الجمعية التاريخية لغانة) سنة 1961 . ولما أتيح لي الاطلاع عليه احسست بميل قوي الى نقله الى اللغة العربية رغبة مني في ان اضع امام القاريء المغربي نموذجا من نماذج الدراسات التاريخية القائمة على الاستقراء والمقارنة والاستنتاج نصف ميدانه جزء من اجزاء هذه البلاد التي تنتظر من ابنائها الدارسين ان يجلو تاريخها في صورة قائمة على أساس من البحث العلمي الدقيق ، وبما ان البحث يتعلق بتاريخ مدينتين افريقيتين احدهما مغربية (سجلامة) والاخرى سودانية (غانة) ، فقد يجد فيه القاريء المغربي حافزا للاهتمام بالبحث عما كان بين المغرب وبين ما وراءه من بلاد افريقيا السوداء من علاقة قوية في الماضي انشأها أبطال الاسلام ودعائه الاولون ، وان اثارة البحث عن هذه العلاقة قد يكون

احدى الصوى الهادية الى الطريق الاقوم للوصول الى ما تسعى اليه اليوم جميع البلاد الافريقية من (وحدة) تضمن لشعوبها العزة والكرامة والمستقبل الافضل الذي تنشده ، وسيطلع القاريء المغربي من خلال البحث كذلك على كثير من المشاكل والاسئلة التي أثارها الكاتب حول بعض قضايا التاريخ المغربي ، والاقدم منه على الاخص ، وقد تكون بعض الاجوبة التي ارتأى الكاتب أنها الحل الواقعي ، او الجواب الصحيح لما أثاره من المشاكل والاسئلة ، محل نظر ، ومثار مناقشة ، لدى المعنيين بتاريخ هذه البلاد من المثقفين المغاربة .

* * *

يقول دانيال :

ان سجلماصة (1) التي اصبحت في عداد الاطلال البالية منذ

(1) قال ياقوت في معجمه عن لفظ سجلماصة انه بكسر اوله وثانيه وسكون اللام ، وسيرد اثناء البحث مناقشة الكاتب للفروض المحتملة لاشتقاق هذا اللفظ من اصول في اللغة العربية او غيرها ، ولم يذكر ياقوت ولا البكري ولا غيرهما — فيما وقفت عليه — ممن تعرضوا لذكر سجلماصة من اصحاب المعاجم الجغرافية اى شىء عن اصول هذا اللفظ ، وقد ذكر البحاثة المؤرخ الاستاذ عبد السلام بن سودة في كتابه (دليل مؤرخ المغرب الاقصى) نقلا عن بناني في الرحلة الكبرى ان الزبيدي شارح القاموس قد الف كتابا في تحقيق اصول هذا اللفظ ، سماه « الحاجة الماسة في تحقيق لفظ سجلماصة » ولكن هذا الكتاب غير موجود الآن ، اما عن موقع سجلماصة فقد ذكر البكري « انها في اول الصحراء » وذكر ياقوت « انها في جنوب المغرب » و « في منقطع جبل درن » ، والمعروف الان ان سجلماصة كانت على بضع كيلومترات من مدينة الريسانى بتافيلالت ، وقد وصف البكري عمران المدينة وما كانت تحتوى عليه في ايامه من النخيل والاعناب الشديدة الحلاوة وانواع التمر ومهارة نسائها في صناعة الصوف ، وما كانت تدره هذه الصناعة على اهلها من الارباح الباهظة ، قال : واهل هذه المدينة من اغنى الناس واكثرهم مالا لانها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب ولاهلها جراءة على دخولها وفي مادة (تبر) من معجمه تجد الوصف الغريب للرحلات التجارية الشاقة التى كان يقوم بها السجلماصيون لغانة ، وقد ذكر ابن حوقل انه رأى صكا بدین لاحد اهل سجلماصة على غيره مبلغه اثنان واربعون الف دينار . المترجم

القرن السادس عشر .

وغانة (1) التي صارت هي الاخرى في نفس الوضع بأطول من ذلك بنحو ثلاثة قرون ، كانتا في عز أيامهما تقطعتي التقاء للطريق التجاري عبر الصحراء جنوبا وشمالا . كانت الاولى تقع جنوب الاطلس ، وكانت الثانية تقم على المنعطف الغربي لنهر النيجر . وبالرغم من أن بداية تأسيس المدينتين غامضة ، فإن بعض الروايات قد دونت مع ذلك أثناء مختلف العهود العمرانية لكلتي المدينتين . غير ان تدوين هذه الروايات كان ولا شك بعد أن تقادم العهد على تأسيس المدينتين .

على ان هذه الروايات وان كانت قد دونت منذ قرون خلت ، فإنها مع ذلك لم تكن تاريخا بالمعنى الحقيقي للتاريخ ، وانما

(1) قال ياقوت في معجمه عن كلمة غانة (انها كلمة اعجمية لا اعرف لها مشاركا في العربية) ولعل الانسب في اصل هذا اللفظ هو ما تآلتته دائرة المعارف البريطانية من انه « كان اسما للحاكم الذي كان يحكمها » وذلك ما اثبته البكري حين قال : (وغانة سمة للوكهم) وكما نطلق اليوم اسم «تونس» و « الجزائر » على الجمهورية التونسية والجزائرية وعلى المدينتين اللتين هما عاصمتا هاتين الجمهوريتين ، فان اسم « غانا » كذلك كان يطلق على المملكة الغانية القديمة وعلى المدينة التي كانت عاصمة لهذه المملكة ، وقد اصبح اسم (غانة) اليوم يطلق على الجمهورية الغانية بساحل الذهب . انظر المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ص 174 وانظر دائرة المعارف البريطانية مادة Ghana وانظر ايضا المقال الذي كتبه الدكتور كوثر عبد الرسول في العدد الرابع من مجلة (نهضة افريقيا) . المترجم .

كانت روايات شفوية (1) قد مضى زمن طويل على تسجيلها ، لذلك ينبغي ان تؤخذ بنفس الطريقة التي تؤخذ بها الروايات الشفوية في أيامنا هذه ، فالرواية في حد ذاتها وحتى احسنها وأكملها ، كما يقول جوهان هويرينكا ، « ادلة خرساء وغير مضبوطة » ، ذلك لانها ، كما يقول « انما تقدم للتاريخ بعض اسئلة تضعها عليه بعض الاحيان » ثم يزيد محذرا لنا قائلا : « وحيث لا يكون هناك سؤال واضح فليس هناك من معرفة يمكن ان تعطي الجواب » ، وحيث يكون السؤال غامضا يكون الجواب كذلك غامضا بنفس الصورة .

ان الرواية عن مبدأ تأسيس غانا تتسم بشيء من الضعف بالنسبة للرواية عن تأسيس سجل ماسة ، غير انها عن تلك قد اعطيتها بعض الاهتمام بشيء من الشرح والتفصيل ، على حين أنها

(1) لا يتحقق الوجود الفعلي للرواية الشفوية « Oral Tradition » الا اذا كان الامر يتعلق برواية احداث حديثة نسبيا لم يمت شهودها كما يظهر ذلك من كلام شارل لانجلوا وشارل سنيوبوس في اول كتابهما « المدخل الى الدراسات التاريخية » ، ومن ثم فقد لاحظ اندرى لالاند ، في قاموسه للمصطلحات الفنية والنقدية للفلسفة ، ان التفرقة بين الرواية الشفوية والرواية الكتابية بالنسبة الى الماضي تفرقة غير ذات قيمة ، ذلك لان الرواية الشفوية — كما يقول — لا تتحقق بالنسبة الى الاحداث الماضية الا عن طريق الرواية الكتابية .

انظر في المعنى كتاب « المدخل الى الدراسات التاريخية تأليف لانجلوا وسنيوبوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وانظر ايضا
« Vocabulaire technique et critique de la philosophie » , par André Lalande
المترجم

عن هذه بقيت في واقع الامر مجهولة ، ان كلا من تكوين رأي حول هذه الروايات او الاغضاء عنها قد يؤديان في مثل هذه الحال - فيما اعتقد - الى سوء فهم ، ومع ذلك فسأقوم بمحاولة في هذا الشأن لفحص وتوضيح الروايات عن سجلماصة في شيء من التفصيل ، ولإعادة النظر في الروايات عن غائنة في شيء من الاختصار والتقريب ، ذلك لانه - ولتقرير النتيجة مقدما - يوجد بعض الاحتمال في أن الذين قاموا بتأسيس المدينتين ينتسبون الى جماعة سلالية واحدة .

تأسيس سجلماصة

ان اغلب الكتاب المعاصرين متفقون تماما على تحديد تاريخ تأسيس سجلماصة ، فكويتي مثلا قد كتب يقول : ان سجلماصة قد أسست في تافيلالت سنة 58 - 757 كانت اعظم طريق ، واوسع مدخل لقدم القوافل التجارية في السودان . وكي لاسير يقول هو ايضا في تأكيد : ان سجلماصة التي اسست في سنة 58 - 757 كانت عاصمة الذهب . إن جميع هذه الاقوال تعتمد على الرواية التي ذكرها البكري (1) . والواقع ان هناك عدة روايات اخرى تتعلق بالاصول

(1) عبد الله بن عبد العزيز بن ابي مصعب الاندلسي البكري الامام الاخباري اللغوي الاديب ، صاحب كتاب المسالك والممالك ، ومعجم ما استعجم من البلاد والمواضع ، ابوه عبد العزيز البكري كان احد ملوك الطوائف بولبة وسلطيش من غرب الاندلس ، قال عنه ابن بشكوال في كتاب الصلة انه كان من اهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بمعانى الاشعار والغريب والانساب والاخبار توفى سنة 487 .

الاولى للمدينة ، وتظهر هذه الروايات في بعض الاحيان - ولو ان ذلك ليس دائما - في بعض المصادر المعاصرة التي تناولت الكلام عن سجلماسة ، فدائرة المعارف الاسلامية التي تمدنا عادة بتفصيل القول في الموضوعات تنص على ان سجلماسة ربما أسست في ازمة قديمة ، وهذا أ . و . بوفيل يذهب الى أبعد من ذلك حين يقول : انه ليس من البعيد ان المدينة المغربية القديمة سجلماسة كانت في أيام القرطاجنيين اعظم مستودع لتجارة الذهب التي استمرت زمنا طويلا . لقد اتجه اغلب الكتاب الى ان يختاروا الرواية التي ظهر انها اكثر تحديدا ، وهناك رواية واحدة هي التي حددت التاريخ فعلا . ولكن مهما تكن الرواية التي يختارها كاتب بعينه بعد ان يكون قد قام بعملية الاختيار ، فانه قد طرح باقي الروايات التاريخية ، بل ان واجب البحث يقضي بان تعتبر الروايات كمجموعة ، ذلك لانه لا ينبغي لنا ان نبحث كل رواية في عزلة عن الاخريات ، بل نحاول ان نبحث عما اذا كانت توجد هناك بعض العلاقات بين هذه الروايات جميعها . ان تأسيس المدينة قد نسب الى خمسة اشخاص مختلفين ، ونجد اول ذكر لثلاثة من هؤلاء المؤسسين في كلام البكري ، وقد ذكر بعض من تأخر عن البكري من المؤلفين العرب روايات هؤلاء الاشخاص الثلاثة ، اما الاثنان الباقيان من هؤلاء المؤسسين

المذكورين فقد أفادنا بالخبر عنهما ليو الافريقي (1) .

ولا نجد أي ذكر لهما عند غيره فيما اعلم ، وقد زار ليو المدينة مرتين وامضى هناك بعض الشهور ، وهناك كثير من الرحالة قد اخطروا المدينة مثل ابن بطوطة (2) ولكنهم لم يسجلوا أي شيء عن روايات تأسيسها .

والبكري نفسه لم يزر المدينة وانما كان في وضع مكنه من ان يكتب عنها اخبارا من أولئك الذين رجعوا منها إلى اسبانيا ، ذلك لان سجلماسة وقرطبة كانتا متحالفتين كما ان كلا منهما قد قاوم

(1) الرحالة المغربي ، الحسن بن محمد الوزان الاندلسي الفاسي الذي اشتهر لدى الاوروبيين بـ Leo Africanus ولد بفرناطة سنة 901 هجرية 1496 م ، اما وفاته فمجهولة الزمان والمكان ، تربى ونشأ ودرس العلم بفاس حيث هاجرت عائلته في جملة من هاجر من المسلمين المطرودين من الاندلس بعد سقوط غرناطة سنة 897 هجرية 1492 م ، جال كثيرا في بلاد افريقيا وآسيا ، وعندما كان راجعا من تونس الى المغرب سنة 926 هـ أسره بعض القراصنة الايطاليين وارسلوه الى البابا ليو العاشر الذي اتخذه احد خواصه لما وجد فيه من سعة افق في مختلف العلوم والمعارف الاسلامية التي كان هذا الملك شغوفا بنشرها في مملكته ، وهو الذي سماه باسم (يوحنا الاسد) او (ليو) ، وهناك الف كتابه (وصف افريقيا) . انظر (حياة الوزان الفاسي وآثاره) تأليف محمد المهدي الحجوي ، وانظر ايضا دائرة المعارف الاسلامية والبريطانية ، وانظر المقالات المتتابعة التي كتبها المرحوم سعيد حجي عن حياة هذا الرحالة المغربي من السنة الثالثة من (مجلة المغرب) . المترجم

(2) الرحالة المغربي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة صاحب الرحلة المسماة بـ (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) ، وقد طاف ابن بطوطة آفاق الارض شرقا وغربا وسجل كل ما وقعت عليه عيناه من احوال الخلق وغرائب الاحداث ، توفي سنة 777 او 79 هـ . وقد اخطرق ابن بطوطة سجلماسة في طريقه الى السودان ذاهبا وآيبا ، في اوائل ايام السلطان ابي عنان المريني بين سنة 752 — 753 هـ . ولم يذكر ابن بطوطة أي شيء عن بداية تأسيس المدينة وانما ذكر انها كانت في أيامه (من احسن المدن) . وقد عد أبو القاسم الزياني في (الترجمة الكبرى) سجلماسة في جملة المدن التي اسسها البربر قبل الاسلام حيث قال « واسس بنو مدرار من مكناسة (سجلماسة) قبل الاسلام » . المترجم

1 - الرواية التاريخية عن أبي القاسم

ان اقدم نص موجود لهذه الرواية هو ذلك النص الذي كتبه البكري في قرطبة عندما كان محافظا لسجلات الامويين في القرن الحادي عشر ، ولقد ذكر البكري اكثر من رواية عن تأسيس المدينة ، ولكن هذه هي المختارة عنده ، وهي الرواية المرجحة عند المتأخرين من الكتاب العرب والاوروبيين في مؤلف (2) البكري « ومدينة سجلماسة بنيت سنة اربعين ومائة 140 (58 — 757) وبعمارتها خلت مدينة ترغة (3)

(1) كانت اول مقاومة من سجلماسة للفاطميّين أيام اليسع بن ميمون حينما زحف أبو عبد الله الشيعي من افريقيا على سجلماسة سنة 296 هـ مبتغيا اطلاق سراح عبيد الله المهدي وابنه اللذين سجنهما اليسع حين قدما سجلماسة للقيام بالدعوة الشيعية فيها ، ومن هنا استمر النزاع بين المذهب الخارجي والمذهب الشيعي في سجلماسة في الوقت الذي كانت فيه الحروب الطاحنة مستعيرة بين ملوك قرطبة من الامويين وبين العبيدين في افريقيا على تولى السلطة في المغرب

(2) يعنى بمؤلف البكري كتابه «المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب» الذي هو جزء من كتاب (المسالك والممالك) الذي لم يوجد كاملا وانما وجد منه هذا الجزء الذي نشره البارون دوسلان في الجزائر سنة 1857 ثم في باريس سنة 1911 وقد رجع الكاتب فيما نقله — كما يقول في تعليقه — الى الترجمة الفرنسية سنة 1913 على حين رجعت الى الاصل العربي لانقل عنه ما ترجمه هو عن الفرنسية

(3) لعل مدينة ترغة التي ذكر البكري في هذا النص انها خلت بعمارة سجلماسة هي الاصل لما لا يزال يعرف حتى الآن بـ (قصر ترغة) قرب قصر السوق اما الاسم « ترغة » فقد كان معروفا انه اسم لاحدى القبائل البربرية التي كانت تسكن هذه الناحية والتي ذكرها ابن حوقل على انها احدى القبائل الصنهاجية الخلس ، وهناك مدينة لا تزال اطلالها بادية على شاطئ البحر الابيض المتوسط قرب (وادي لو) تعرف حتى الآن بهذا الاسم ، (ترغة) ولا شك ان أصل ترغة الشمالية هذه هو ترغة التي كانت مع تيكساس وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة بالشمال المغربي من حظ عمر بن ادريس حين اقتسم ابناؤ ادريس نواحي المغرب بعد موته ، راجع المسالك والممالك لابن حوقل ص 101 طبعة بيروت ، والاستقصا ج 1 ص 75 وابن خلدون ج 4 ص 14

المترجم

وبينهما يومان وبعمارتها خلت زين أيضا .

وبعد ان سجل البكري هذه الرواية انتقل الى الكلام بتفصيل عن رفع اسوار المدينة وبنائاتها العامة التي بنيت تحت رعاية ثاني ملوك الدولة ، ثم أخذ يصف خصب أوديتها ، ثم عاد في النهاية إلى الكلام عن الخلافة فقال : « أبو القاسم سمكوا بن واسول المكناسي ابو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بافريقيا عكرمة (1) مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية كثيرا ما ينتجع موضع سجالمة فاجتمع اليه قوم من الصفرية فلما بلغوا اربعين رجلا قدموا على انفسهم عيسى بن مزيد الاسود . وهنا عاد البكري فاعطى تحديدا لتاريخ سنة بناء المدينة يخالف ما سبق أن ذكره ، وليس من شك في أن هذا التحديد الاخير كان غلطا من بعض النساخ ، اذ لم يرد أي ذكر لهذا التحديد لا عند ابن عذارى ولا عند غيره من الكتاب المتأخرين الذين وصلهم مؤلف البكري وهذا التحديد هو قوله « فشرعوا في بناء سجالمة وذلك سنة أربع ومائة » . لقد تولى أبو قاسم الحكم بعد خلع عيسى بن مزيد ، ولكن البكري قبل ان يتناول الكلام على رواية أبي القاسم هذه ، ذكر الرواية الثانية (رواية مدرار) عن

(1) الذي في تاريخ ابن خلدون نقلا عن عريب بن حميد في تاريخه ، ان اباه هو الذي كان يتحقق من جملة العلم ، ارتحل الى المدينة فأدرك التابعين واخذ عن عكرمة مولى ابن عباس . انظر ابن خلدون ج 6 ص 130
المترجم

تأسيس المدينة ثم قصة خلع عيسى ، ونحن تقتصر هنا على ما يتعلق من القصة برواية أبي القاسم ، قال البكري : « وولاهم (عيسى) خمسة عشر عاما ثم ولوا أبا القاسم سمغو بن (1) مزلان بن نزول المكناسي فلم يزل واليا عليهم الى ان مات » .

لقد كان هذا أول بداية للدولة المعروفة بدولة (بنو مدرار) ، وهنا يقدم البكري قائمة لولاة هذه الدولة ، وبالرغم من ان أبا القاسم لم يكن رئيسا في الوقت الذي كانت تباشر فيه عملية بناء المدينة فان القصة تظهر انه كان الحاكم الفعلي ، وان فترة حكم عيسى انما كانت كفترة استجمام التي ليست لها اهمية الادوار الاساسية في تمثيل الرواية ، ان الرواية تحدثنا أن ابا القاسم كان اول من ساق اغنامه الى الناحية ، واول من تجمع حوله اتباعه الدينيون ، ثم بعد المبايعة الغامضة لعيسى نودي به على أنه هو الحاكم الشرعي .

ان هذه ولا شك كانت الرواية الغريبة من الرواية الرسمية التي رويت عن رجال الحكم انفسهم ، والبكري ربما احرز على الوثيقة التي دونت زمان سيادة المدراريين على سجلماسة ، والفرق الاساسي بين هذه الرواية ورواية ابن عذارى الذي كتب تاريخه في القرن الثالث عشر هو ان هذا ينص على أن تأسيس المدينة كان قبل اختيار

(1) ذكر البكري من قبل ابا القاسم على انه ابن واسول ، وهنا يذكر انه مزلان ، والذي عند ابن خلدون في العبر ان مزلان اب لواسول وجيد لابي القاسم فهو يذكر النسبة هكذا (سمكو بن واسول بن مصلان بن ابي نازول) ، اما ابن عذارى فيذكر النسبة هكذا (قيل انه ابن واسول وقيل انه ابن مزلان) .

المترجم

عيسى حاكما ، الشيء الذي يدل بوضوح تام على أن الفضل في تسيير عملية البناء كان لأبي القاسم ، وابن خلدون الذي كتب تاريخه في القرن الرابع عشر ، ذكر نص هذه الرواية كذلك ، وهو يخالف المصدرين السابقين في كونه يذكر عيسى قبل أن يورد ذكر أبي القاسم في القصة ، ولكنه يشير بعد الخلع الى ان هذا الأخير كان زعيما حقيقيا لمكناسة ، ويذكر ابن خلدون أن افراد الجماعة كانوا اربعين رجلا لهم صفات الزعامة والقيادة أكثر منهم ملاك قطعان من الغنم ، وفي نص ابن خلدون ان ابا القاسم لم يكن له أي فضل في القيام بأي عمل خاص زائد على باقي افراد الدولة في تأسيس المدينة ، غير انه كان ذلك الرجل الذي قام بالدور الرئيسي في اقناع الباقيين في قبول عيسى رئيسا لهم ، وفي المصدرين السابقين ان ابا القاسم كانت اداة فعالة في الايعاز ببناء المدينة ، او بتسيير عملية البناء فعلا . وهذا مفهوم ضمنا من كلام البكري ، وبصريح العبارة في كلام ابن عذارى . ان رواية ابي القاسم مرتبطة برواية عيسى ، لذلك يجب ان ننظر في الرواية الثانية قبل البدء في اي مناقشة لكليهما .

2 - رواية عيسى

وكما رأينا من قبل فان عيسى قد انتخب رئيسا ، اما قبل بناء المدينة بقليل على رواية البكري ، او على اثر بنائها على رواية ابن عذارى ، وحكم مدة خمسة عشر سنة ، وبما ان الحديث عن

عيسى كانت مغمورا في الحديث عن ابي القاسم فقد اعتبر وكأنه مجرد اشارة في الحديث عن صعود ابي القاسم الى الحكم دون ان تكون له هو نفسه اهمية ذاتية ، فهل هناك اذن رواية تامة تخص عيسى ؟ من الممكن ان نقرأ البكري وان نفهمه وهو يقدم لنا فقط روايتين اثنتين ، احدهما عن عيسى والاخرى عن مدرار ، غير ان الفصل كان مضطربا بعض الشيء ، فلقد كان البكري يدور قافزا من قصة الى اخرى ، مرة الى الامام ، ومرة الى الورا ، مستعملا في بعض الاحيان عبارة التبعية والاجتياز Transitional phrases كقوله : « تبعا لبعض المؤرخين الآخرين » ، والذي يظهر ان البكري عند ما كان يفحص مصادره كان البعض منها عنده غامضا او غير تام ، او انه لم يتأن لاستعاب المصدر كله ، او انه كان قد عزم على الرجوع الى هذه الرواية او تلك ولكنه في النهاية نسي ذلك ، والجزء الاول من القصة المذكورة اعلاه هو قوله : « . . فاجتمع اليه (ابو القاسم) قوم من الصفرية فلما بلغوا اربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى ابن مزيد الاسود وولوه امرهم ، فشرعوا في بناء سجالسة ، وذلك سنة اربع ومائة » . وعند هذا الحد رجع البكري الى واحد او أكثر من المصادر المختلفة ليتكلم عن مدرار . ثم لما عاد الى الكلام عن عيسى تكلم عنه فقط كصعوبة اعترضت سبيل وصول ابي القاسم الى الحكم ثم زالت ، فقال : « فأول من وليها عيسى بن مزيد ثم انكر اصحابه الصفرية عليه اشياء ، فقال ابو الخطاب يوما لا صحابه في مجلس عيسى : السودان كلهم سراق

حتى هذا . و اشار الى عيسى فاخذوه وشدوه وثاقا الى شجرة في رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض ، فسمي ذلك الجبل جبل عيسى الى اليوم ، ووليه خمسة عشر عاما .

وابن عذارى كان كلامه كذلك غامضا حول السبب الذي من اجله خلع عيسى فقد قال في جملة مختصرة : « ثم انكروا عليه اشياء » . دون ان يعين ماذا كانت التصرفات المنكرة . وابن خلدون كذلك لم يفصل القول في هذا الشأن تفصيلا عندما قال : « ثم سخطوا على اميرهم عيسى وتقموا عليه كثيرا من أحواله » . قال ذلك دون ان يحدثنا عما كان يشتمل عليه هذا السلوك المنتقد ، هناك اذن كثير من الاسئلة يمكن ان نضعها حول هذه الرواية . فماذا كانت هوية عيسى هذا ؟ وما هي الروابط التي كانت تربطه بمكناسة ؟ لناخذ اولا لقبه (الاسود) الذي يعني في اللغة الانجليزية « The black » . عيسى اذن لم يكن مكناسيا ولكنه كان زنجيا ، فما هي الصفات التي جعلت مكناسة تنتخبه كرئيس اول لها ؟ ان الروايات التاريخية لم تحدثنا بأي شيء عن الاسباب التي دعت الى انتخابه رئيسا ، ولا عن الاسباب التي دعت الى خلعه بعد هذا الانتخاب ، قد يكون من المعقول ان الرجل كانت له صفاته الدينية التي دعت الى زعامته حينما كانت الصفرية تشكل اول الامر جماعتها الخارجية ، وربما كان من الممكن بالنسبة اليه انه قد وهب ميزته الخاصة في هذه الخلعة ، ان دائرة المعارف الاسلامية تحدثنا عن الخوارج الذين تعد الصفرية فرعا منهم أنهم : « اعلنوا ان كل مومن منزّه عن صفات النقص ،

كامل الدين والخلق في امكانه ان يرقى باختيار الجماعة الى مرتبة الامامة ولو كان عبدا اسود » وقد حدثنا ابن خلدون : « ان عيسى كان من رؤوس الخوارج » فربما كانت قيمته الخارجية هذه هي التي رفعتة الى ذلك المقام من الشرف والسلطة ، وربما كان هناك نزاع على السلطة بين الرؤساء المكناسيين جعلهم يتراضون على ان يكون رجل الدولة ليس واحدا منهم . فهل يحتاج الباحث ان يذهب الى ابعد من هذا ليصل الى الحقيقة في شأن عيسى ؟ اذا كان الجواب بنعم ، فليس ذلك في ان نحصر أنفسنا داخل النصوص التاريخية ، وانما يكون في أن نتأمل الاسئلة التي يطرحها علينا التركيب الاجتماعي للرقعة السجلماسية في الازمنة الاخيرة . ذلك انه يوجد من بين سكان المغرب ، السكان السود الذين يعرفون حتى اليوم باسم الحراطين ، وهكذا يكون من المهم أن نسأل : من اين اتى هذا الرجل الاسود ، عيسى ؟ فهل كان سوداني الاصل ؟ او اوتي به من افريقيا على طريق الجزيرة العربية أو مصر ؟ او هو قد ولد في المغرب ؟ وبتحديد اكثر ، هل يمكن ان ينتسب عيسى لوادي زيز ؟ ان كل هذه الاسئلة ذات اهمية كبرى ، ولكن مع الاسف ان ليست عندنا أية وسيلة للاجابة عنها ، وحتى امكانية عضوية عيسى في هذه الجماعة المحلية السوداء يتوقف على سؤال آخر هو : ماهو اصل الحراطين ؟ يعتبر بعض الكتاب ، ان الحراطين مولدون منحدرون من العبيد السودانيين الذين جلبهم البربر ، واذا كان ذلك حقا ، فربما كانوا غير موجودين في القرن الثامن ،

او كانوا موجودين ولكن عددهم كان قليلا ، وهناك آخرون يعتبرونهم من سكان الصحراء السود الاقدمين ، وهناك بعض كتاب آخرين قد أحجموا عن ان يجزموا بأي رأي في الموضوع ، فكابوت ري Capot Rey يميل تجاه الرأي الذي يعتبرهم منحدرين من خليط من الاجناس المختلفة ، وهنري تيراس Henri Terrasse يرى انهم جنس سلاسي قائم بذاته على حين ان كوتيي Gautier يرى السؤال لا يزال حتى الان مفتوحا ، ومهما يكن من الامر فان كابوت بريك Cabot Briggs في اكمل واحدث دراسته لسكان الصحراء يقول ان التسمية السلاية (1) الغامضة للحراطيين هي اقرب ان تكون الى تيدا Tida من الجزء الشرقي من الصحراء . وعلى هذا الاساس الذي ذكره بريك في مؤلفه الذي هو اشمل دراسة لهذه المسألة ، فانه يمكننا ان نقول ان هذه الجماعة ليست من اعقاب العبيد الذين اتى بهم البرابرة ، بل انها كانت موجودة في ذلك العهد ، وعلى هذا يمكن ان ننسب عيسى الى الجماعة التي تعرف الآن باسم الحراطيين ، بالرغم من أن هذا الاسم لم يطلق عليها الا

(1) الذي عند الناصري (الاستقصا ج 4 ص 27 طبعة مصر) ان هذه التسمية ليست سلاية وانما هي تسمية عرفية حيث اصطلح المغاربة على اطلاق لفظ (الحراطي) على من كان عبدا ثم اعتق ، وعنده ان اصل كلمة (الحراطي) الحر الثاني ، كان الحر الاصل حر أول وهذا العتيق حر ثان ، ثم كثر استعماله على اللسنة فقيل (الحراطي) على ضرب من التخفيف . وقد ورد في كلام صاحب (الجيش المرمم) ص 69 — 83 — 84 طبعة فاس ، على انشاء الجيش الاسود وترتيب طبقاته في العهد الاسماعيلي ما يفيد ترجيح ما قاله الناصري عن اصل هذه التسمية .

حديثا . واذا كان ينتسب الى هذه الجماعة ولم يكن شخصا منقطع النسب ، فانه لا ينبغي ان ينظر الى الرواية التاريخية عنه على انه شخص اسود نال زعامة المكناسيين وكفى ، ولكن بعمق اكثر ، ينبغي ان ينظر اليها في حدود علاقة الاهالي السود الذين كان ينتسب اليهم بالبرابرة المتحكين ، فاما البرابرة قد فرضوا انفسهم في وقت من الاوقات على الحراطين ، فذلك شيء لاشك فيه ، ولكن متى كان ذلك ؟ فهل بعد ظهور عيسى او قبله ؟ ليس لدينا من المستندات التاريخية ما يشير الى هذا الحادث . لقد كان هناك بعض القبائل السود في العهد الابليني « In Pliny's Time » (1) يسكنون الحدود الجنوبية الموريطانية التي احتلها الرومان ، وقد أكد ذلك سترابو وبطليموس ، وقد اعطى لهذه القبائل اسم البرورسيون The Perorsi ، كذلك كانت توجد هناك قبيلة اطلق عليها بعض الكتاب الاقدمين اسم : « The melano Getulians » ومعناه

(1) بليني اوبلينيوس في التعبير اللاتيني ، قائد وحاكم وعالم طبيعي روماني عاش في القرن الاول من ميلاد المسيح تولى اكثر من منصب مدني وعسكري في عهد القائد الروماني فيسباسيان Vespasian وقاد الاسطول الروماني غربي البحر الابيض المتوسط ، قضى مدة طويلة من عمره منكبا على المطالعة وتحصيل العلم ، اشتهر بكتابه « التاريخ الطبيعي » الذي الفه في 37 مجلدا ، توفي في ايطاليا مختنقا بالغازات عند انفجار بركان فيسيفيوس Vesevius في ستابيا Stabiae سنة 79 ميلادية .

الجيتوليان السود ، والجيتوليان (1) أنفسهم كانوا برابرة فهل كان هؤلاء الجيتوليان السود تابعين للبرابرة في ايام الرومان .

ان ذلك ليس ببعيد ، ولكننا لا نجد أي ذكر صريح لذلك في النصوص التاريخية ، لقد كان من المرجح ان جماعة البيروسيين « Perorsi » او الفاروسيين « Pharossi » او غيرهم من سكان الصحراء السود كانوا بربريين لسانا أو على الاقل مزدوجي اللغة ، وقد كنا نستطيع ان نجد في هذا دليلا لا بأس به على اعتبار أن الجيتوليان السود كانوا مستقلين عن الجيتوليان البرابرة ، لو اننا لم نقف على نص آخر لبليينوس يخالف تمام المخالفة نصه الذي ذكر من قبل فهو في هذا النص الآخر يقول : (ان جيتوليا كلها تمتد الى نهر النيجر وتفصل ما بين الحبشة وافريقيا) ولا يمكن ان يفهم ان جيتوليا تمتد الى نهر النيجر الا اذا كان الجيتوليان السود داخلين في العبارة ، ان هناك فجوة من القرون بين هؤلاء المؤلفين الكلاسيكيين وبين الروايات العربية الاولى ، وليس عندنا اي علم عن الفترة التي كان فيها ركاب الجمال يبسطون نفوذهم

(1) ذكر فليكس كافوت في قاموسه اللاتيني ان جيتوليا Ghetuliae ناحية في غرب شمال افريقيا ، وقد ذكر الاستاذ عثمان الكعاك (البربر ، ص 67) ، ان الجيتولين هي (جدالة) ، وانها القبيلة البربرية التي كانت تغمر قسطنطينية في عهد الامبراطورية البربرية الوسطى التي كان على راسها العاهل البربري سيفاكس في القرن الثالث قبل الميلاد . وقد ذكر البكري (المغرب في وصف افريقيا والمغرب ص 172) . ان بنى جدالة كانوا اقرب القبائل البربرية الى بلاد السودان على ضفاف النيل (النيجر) ، ويذكر ابن خلدون (ج 6 ص 152 — 181) في كلامه على انساب البربر : ان (كدالة) احدى القبائل الصنهاجية الكبرى التي كانت تحتل الصحراء من حدود الحبشة الى بلاد السودان .

المترجم

على الصحراء ، ويعتقد أن ذلك ابتداءً نحو القرن الرابع ، وربما يكون تغلب البرابرة الرحل على سكان وادي زيز السود ، إحدى الواحات الكبرى التي تعرضت لهجماتهم ، قد دام ما يقرب من أربعة قرون ، وإذا فرضنا أن هذا التغلب لم يستمر على هؤلاء السكان مدة أربعة قرون ، فإنه يرد علينا السؤال التالي : ما الذي مكنهم من المقاومة ؟ وليس هناك من جواب عن هذا السؤال ، سوى أنهم كانوا ذوي حكومة منظمة قوية بتجارة الذهب . والنتيجة التي يجب التسليم بها هي أننا لا نعلم أي شيء عن مركز السكان السود في أيام عيسى ، ولكننا ، ولتفسير هذه الروايات التاريخية لا نجد أي مفر من أن نفترض أنهم كانوا مستقلين ، فلو أن جماعة صغيرة من الرعاة نزلوا فجأة في مقاطعة مستقلة من سجلماسة ، فإن هؤلاء الرعاة لا محالة ، أما أن يعترفوا بسلطة الزعيم المحلي ، وأما أن يكونوا قد استعدوا من قبل للتغلب عليه ، وهكذا نرى أن تفسير قبول المكناسيين لزعامة رجل أسود بمجرد نزولهم كان بكل بساطة أن هؤلاء النازلين كانوا قد اضطروا إلى الخضوع إلى سلطته أولاً ، وحتى إذا ما أصبحت لهم القدرة الكافية استطاعوا أن يجدوا الحجة لخلعه .

والآن فلنتأمل دين هذا الزعيم الأسود ، أنه بالرغم عما يستفاد من الرواية كما يرويها الكتاب المسلمون من أنه كان صفرياً ، وربما كان رجلاً مثالياً في هذا المذهب ، فإنه ليس من البعيد أنه لم يكن

مسلمًا بالمرّة . ذلك ان اسمه (عيسى) هو الاسم العربي لـ Jésus
وان هذا الاسم واسم موسى وغيرهما من الاسماء الدينية لما قبل
الاسلام تعتبر اسماء لانبياء الله ، والمسلمون يستعملون هذه الاسماء
كاطلاقات مناسبة لمن يتمسك بدينه ، ومع ذلك ففي الجهات حيث
كانت المسيحية قوية او تقوت من جديد ، فان الاسم عيسى قلما
يطلق على اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ففي مصر مثلاً نجد
اليوم هذا الاسم اكثر اطلاقاً على القبطي او الاغريقي منه على المسلم .
وفي القرن الثامن كانت المسيحية لاتزال جد منتشرة في شمال
افريقيا (1) الى حد ان الانسان يستغرب ان يكون عيسى هذا

(1) في جملة الاتوال التي نقلها الدكتور حسين مؤنس (فتح العرب
للمغرب ص 281) للتدليل على اضمحلال المسيحية في المغرب ابان الفتح
الاسلامى قول بيكى : (ويبدو أن البرابرة لم تكن لهم اديان ثابتة قبل
الاسلام ، وكانوا وثنيين او يهودا ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية في القرون
الاولى ثم نسوها حين اعادوا استقلالهم) . فاذا أضفنا الى ذلك ما ذكره
ابن خلدون (العبر ج 4 ص 186) عن دين برابرة الجنوب حين وصول
جيوش عقبة من انهم كانوا : (يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا
بالنصرانية) ، وما نقله اكثر من مؤرخ من المؤرخين المسلمين من ان يليان
الغمارى وقد كان نصرانياً قدم نصيحته الى عقبة ان لا يذهب الى الاندلس
ويترك كنفار البرابرة ومجوسهم خلفه — فاننا لا نجد اى مستند صحيح
لدعوى الكاتب ان المسيحية كانت لاتزال منتشرة في افريقيا الشمالية
اثناء القرن الثامن الى حد استغرابه ان يكون عيسى ابن مزيان مسلماً
لا نصرانياً ، ولسنا ندري كيف يعقل ان المسيحية كانت لاتزال منتشرة في
افريقيا الشمالية حتى القرن الثامن ، وهو القرن الذى لم تكد العشر سنين
الاولى منه تطل على نهايتها حتى اصبح الاسلام — بفضل ما قام بالدعوة
له الكثير من فقهاء التابعين وعلمائهم — غير مقتصر الانتشار على المغرب
وحده بل عبر البحر منتقلاً الى الاندلس على يد البرابرة المسلمين انفسهم .
اما استدلال الكاتب بالاسم (عيسى) على ترجيح نصرانية عيسى فليس
فيه شئ من الفناء العلمى ، والا فابن نصير الذى قاد حملة الاسلام الى
الاندلس في اوائل القرن الثامن الميلادى لم يكن اسمه عمر ولا ابا بكر ، وانما
كان اسمه (موسى)

الترجم

غير مسيحي .

ويقول ابن خلدون ان أب عيسى اسلم على يد العرب ، والعبارة المستعملة في خصوص أب عيسى هذا هي (مولي) (1) التي يصح ان نترجمها بكلمة « Client » والتي يمكن ان تعني ذلك الذي يقبل الدخول في الدين الجديد مفضلا له عن الحرب . وتبعاً للقانون الاسلامي فان خياراً كهذا يجب ان يعرض على الكفار . والخروج من دين الى دين كما يمكن ان يتخيله المرء ، يكون تقبله اشد قسوة واكثر اثراً في النفس لو لم يكن الجيش الاسلامي دام محتفظاً بقوته ، وفي سنة 702 ميلادية (التي ربما كانت زمن وجود اب عيسى) كانت ناحية سجلماسة محتلة من قبل جيش موسى ابن نصير ، غير انه مما لا شك فيه ان سيطرة الجيش على هذه الناحية كانت ضعيفة ، حيث انه كان لا يزال مكلفاً بالقيام بفتوحات جديدة ، وفي سنة 739 ثار برابرة شمال الاطلس ضد العرب ونصبوا عليهم ميسرة حاكماً مستقلاً وكان من الطبيعي ان تفصل هذه الدولة البربرية ناحية سجلماسة ، وان تعلن عن الرجوع الى الدولة القديمة ، وحيث ان أب عيسى كان مولى للعرب لا للبرابرة ، وان ثورة ميسرة وانفصال الصفيرية قد شكلا رد فعل بربري ضد السيطرة العربية فمما لا شك فيه

(1) عبارة ابن خلدون (العبر ج 6 ص 130) هي : « وولوا عليهم عيسى بن يزيد الاسود من موالى العرب ورؤوس الخوارج » . فالذى يظهر من هذه العبارة ان ابن خلدون قصد ان عيسى هو الذى من موالى العرب لا اباة .
المترجم

ان عيسى شعر بأن البرابرة المنتجعين سيكونون حلفاء نافعين فيما لو اراد جيش آخر قوي مثل جيش موسى بن نصير الرجوع الى هذه الناحية . فاذا كان عيسى هو الحاكم الاهلي الذي بنى ، او على الارجح ، اعاد بناء سجلماسة بعد هزيمة أهله من قبل الجيوش الاسلامية ، فقد تكون رغبته انه اراد ان تكون لقومه مركزا اقوى مما كان لهم من قبل ، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى من أجله بناء المدينة الى خراب مدن أخرى ، وربما كان بامر عيسى قد انتقل كثير من سكان الجهات الاخرى الى هذه الناحية ، وربما قد تقلوا معهم كذلك مواد البناء ليجعلوا العاصمة قلعة محصنة لا يقهرها عدو ، ومما لاشك فيه أن هذه الثورة الدينية العنصرية التي وقعت هنا وقع مثلها كذلك في جهات اخرى ، والمكناسيون ولا شك كانوا عازمين على ان يسيطرون على نواحي اخرى بمجرد ما يشعرون انهم قد اصبحت لهم القدرة الكافية على ذلك ، ومن ثم فإن تسامحا دينيا بالنسبة اليهم كان جسد مفيد ، فإذا كان عيسى مسيحيا فإن العذر في تنحيته عن الحكم ربما كان اقرب الى القبول منه لو كان صفريا ملحدا ، ومما هو قابل للفهم كذلك ان المسلمين لم يكلفوا انفسهم اي مجهود للاحتفاظ بذكرى خضوعهم لحاكم مسيحي . ومهما تكن الصبغة الدينية لعيسى قد حصل ان نهاية امره قد تمت بمساعدة خارجية ، ذلك اننا نلاحظ ان ابا القاسم واتباعه السجلماسيين ليسوا هم الذين اسرعوا بالثورة ضد عيسى ، ولكن ابا الخطاب ، زعيم البرابرة الخوارج الذي كان قد وصل

الى سجالسة بعد ان نال السيطرة العسكرية التامة على الجزء
الشرقي من المغرب ، هو الذي كان قد اشار باصبعه الى عيسى
وصنع التهمة ضده (1)

(3) الرواية التاريخية عن مدرار

نرى في كلتي الروايتين المذكورتين فيما قبل ان التاريخ قد
حدد ، أما هذه الرواية فلم يذكر لها اي تاريخ ، كما انها محاطة

(1) جاء في نص البكري عن نهاية عيسى ما يلي « المغرب في ذكر بلاد
افريقيا والمغرب ص 149 » : « فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في
مجلس عيسى : السودان كلهم سراق حتى هذا ، وأشار الى عيسى » .
وواضح من كلام الكاتب انه حمل أبا الخطاب هذا على أبي الخطاب الأعلى بن
السمح المعافري الأباضي ، اذ هو الذي نال السيطرة التامة على القيروان
وطرابلس ونواحيهما في المغرب الشرقي بعد ان تغلب على عبد الملك بن أبي
الجععد ومن معه من البرابرة سنة 141 هـ . ولكن أبا الخطاب المعافري هذا
قتل سنة 144 هـ على يد ابن الأشعث ، فكيف يصح إذن ان يكون البكري
قد عني بأبي الخطاب الذي صنع التهمة ضد عيسى أبا الخطاب المعافري
وهو الذي كانت وفاته قبل وقوع حادثة عيسى بنحو إحدى عشرة سنة ؟
اذ ان نهاية عيسى وولاية أبي القاسم بعده كانت سنة 155 هـ كما نص
على ذلك ابن خلدون وابن عذاري . وكلاهما قد ذكر قصة خلع عيسى وشد
وثاقه الى شجرة في رأس الجبل حتى مات ، ولكنهما نسبيا كل ذلك الى
جملة اصحابه ، ولم يرد أي ذكر لأبي الخطاب في مؤلفيهما . فاذا كان أبو
القاسم هو أول زعيم اجتمع عليه الصفرية كما ورد ذلك نصا في كلام ابن
عذاري ، وكان أول من حمل قومه على طاعة عيسى ومبايعته كما ورد ذلك
نصا في كلام ابن خلدون ، فان الاقرب الى منطق الحادثة هو ان يكون أبو
القاسم هو الذي اثار على الجماعة بأن يفعلوا بعيسى ما فعلوا به .
وحينئذ يبقى ورود اسم أبي الخطاب في رواية البكري أمرا مجهول السبب .

المترجم

راجع ابن خلدون ج 4 . ص 410
طبعة بيروت .

ابن عذاري ج 1 . ص 82 — 83
الاستقصا . ج 1 . ص 55—56—57

بكثير من الشكوك ، ومناقضة للروايتين السابقتين ، ومن ثم فقد كانت دائما محل تشويش للمعلقين ، وهاهي ذي الرواية كما يحدثنا عنها البكري ، قال : « وذكر آخرون ان مدرارا كان حدادا من ربضية الاندلس ، فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجالماسة ، وموضع سجالماسة ، اذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون القرب ، فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد ، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله فكان ذلك اصل عمارتها ، ثم تمدنت ، والاول اصح في عمارتها ، واما مدرار فلا شك انه كان حدادا ، لان ولداه القائمين بأمر سجالماسة قد هجوا بذلك . وقد تجاهل ابن عذارى وابن خلدون هذه الرواية ، فاما لانهما قد شكا في صحتها ، واما لانهما لم يعلموا اي شيء عماذا تعنيه . والا فمما لاشك فيه انهما قد اطلعا على مؤلف البكري ، والبكري نفسه لم يعط للرواية كبير اهتمام ، وانما ذكرها بالمناسبة ، وانه لمن الصعب ان تتفق هذه الرواية مع الرواية عن أبي القاسم الذي ذكر انه كان جددا لمدرار ، اذ كيف يعقل أن يبنى مدرار هذا المدينة ، اذ كان جده قد بناها من قبل ؟ او كان عيسى هو الذي قد بناها في أيام جده ؟ وانه لغريب حقا ان ينسب بناء المدينة الى الثالث من رجال دولتها الاولى ، وقد وضع البكري ، سلسلة نسب هذه الدولة حين قال : « ابو القاسم سمجوا ابن واسول المكناسي ابو اليسع المذكور وجد مدرار » ، وابن عذارى وابن خلدون قد اتفقا كذلك على رتبة مدرار

فى الدولة . على أن ترتيب الحوادث التاريخية وتعيين أزمنتها يضع امامنا مشكلة كذلك ، فالبكري لم يعين لهذه الرواية اى تاريخ محدد ، ويقترح دوسلان فى حاشية له اسفل الصفحة تحت هذا الكلام طريقة لتورينخ خروج مدرار من اسبانيا حين يقول : « فى الثالث عشر من رمضان سنة 202 هـ (1) (نهاية مارس 818) نشبت ثورة فى الارباض على الناحية الجنوبية من قرطبة ، قد وضع الحكم ثالث الخلفاء الموحدن نفسه على رأس حرسه وهجم على المتمردين ، وقام فيهم بمجزرة مرعبة ، واعطى اوامره بتهديم جميع الدور بما فى ذلك المساجد ، حتى اصبحت هذه الناحية التى كانت آهلة بالسكان قاعا صفصفا ، وارغم السكان على الفرار فذهب البعض الى طليطلة ، والبعض الى اراضي البربر من افريقيا الشمالية ، وشكل آخرون كتائب من خمسة عشر ألف رجل وذهبوا الى الاسكندرية » .

ولكن اذا كان مدرار لم يصل الى المغرب حتى سنة 818 ميلادية ، ثم بعد ذلك بزمان اخذ يذهب باستمرار الى السوق على وادي زيز ، واخيرا اقام هناك فى خيمة ، وعندما بنيت المدينة تطورت تدريجيا ، فان هذا يتعارض مع التواريخ الحقيقية المعينة لحوادث خاصة ، مثل بناء السور العظيم الذى رفع من الحجر والآجر

(1) للاطلاع على تفاصيل هذه الواقعة واختلاف روايات المؤرخين فى تحديد سنة وقوعها راجع تاريخ دولة الاسلام فى الاندلس ج 1 ص 240
للاستاذ عبد الله عنان
المترجم

ونسب الى سنة 199 هـ (15 - 814) ثم تقع في مشكلة انساب رجال الدولة ، حيث نجد ان هذا السور قد قام بينائه اليسع ابو مدرار . قد يكون دوسلان محقا في ان هذه هي الثورة التي كان يعنيها البكري عندما كان يكتب ، ولكن البكري ربما اختلطت عليه او على مصادره الثورة الشهيرة بأخرى اقل منها ، اذ ان هناك عدة سلسلات من الثورات كانت قد وقعت في اسبانيا ابتداء من 740 م ، فبالاضافة الى ثورات البربر ضد السيطرة العربية كانت هناك ثورات المولدين الاسبان (الداخلون في الاسلام) ، ومن بعيد الاحتمال ان يكون مدرار مولدا اسبانيا اكثر من ان يكون واحدا من كثير من البرابرة الذين هاجروا الى اسبانيا ، والاقرب الى الاحتمال انه كان مكناسيا ، فاذا فرضنا ان الثورة الاسبانية كانت احدى الثورات المبكرة ، فاننا نستطيع بهذه الطريقة ان نحل مشكلة تناقض ترتيب السنوات غير ان المشكلة التي يثيرها امامنا تسلسل نسب الدولة تبقى معلقة ، فلنأخذ اذن بطريقة اخرى ، ذلك ان قصة مغامرات مدرار في اسبانيا لا تشكل اية صعوبة اذا ابتعدنا بها عن قصة بناء المدينة ، ونظرنا اليها فقط كمجرد تفاصيل عن احد رجال الدولة ، فمن الممكن ان يكون مدرار قد ذهب الى اسبانيا كشاب في الوقت الذي كان فيه والده يباشر بناء اسوار المدينة ، ويمكن ان يكون قد زاول هناك حرفة حداد (وان كان ذلك ربما كان غير مناسب لمقامه كوارث دولة) ، وشارك في ثورة قرطبة ، ثم رجع الى سجلماسة ليأخذ

في النهاية مكانه في خلافة الدولة ، غير ان هذا الحل غير ممكن
لانه يوجد هناك سبب آخر يجعلنا نأخذ رواية مدرار على انها
رواية لها بعض معنى ، ذلك ان الدولة التي اسسها ابو القاسم
قد عرفت بدولة بني مدرار ، يعني حفدة مدرار ! فلماذا يرتبط
اسم الدولة باسم العضو الثالث في سلسلة نسبها ؟ مع انه ليس فقط
ذلك الذي لم يرق رتبة الشرف وعلو المنزلة الا بفضل جده وابيه ،
بل انه لم يصل الى مقام ابيه الذي اشتهر كحاكم ممتاز ، والذي
كان اول من اطلق عليه لقب (المنتصر) لانه هو الذي اخضع باقي
اراضي جنوب الاطلس ، وادخل وادي درعة تحت سيطرة الدولة
وبنى القصور والحصون ، على حين ان ابنه مدرارا كان رجلا
خاملا وعديم الفائدة ، غير قادر حتى على ضبط ابنائه المتشاجرين .
وربما كان هذا كله مبعث اضطراب لابن خلدون حمله ، وهو
المولم بالتدقيق والتنظيم ، على ان يحذف رواية مدرار ، وينفرد
بين أقدم المؤرخين الذين سبقوه بتسمية الدولة باسم (بنو واسول)
وهي تسمية اقرب الى المنطق ، اذا اخذنا برواية ابي القاسم على
انها رواية قطعية . على أن اشتراك شخصين في اسم واحد وهو
- حادث كثير الوقوع - قد يمكننا من ان نحمل الرواية على
انها تقصد اقدم مؤسس للمدينة ، ولكن ما هي العلاقة حينئذ
بين مدرار الاقدم ، ومدرار حفيد ابي القاسم ؟ ، هناك سبب
واحد يحمل على الظن بأن هذه الرواية عن مدرار هي اقدم رواية
يرجع اصلها الى ما قبل الاسلام ، وهذا السبب هو ان هناك اشياء

غريبة عن مدرار هذا ، فالحدادون كانوا يعتبرون في كثير من جهات البحر الابيض المتوسط ، وبعض اجزاء افريقيا ، والجزيرة العربية ، وكانهم يملكون بعض القوى الخفية . وان تجريد الاسم ، وغموض الحداد ، ربما كانا شيئين ليسا بعيدي الصلة ، فالبكري لم يعطه اي اسم او لقب من الاسماء والالقب الشائعة في الاستعمال الاسلامي (1) ، حقا ان ابن خلدون اضاف لقب (المنتصر) الى مدرار ، ولكن هذا اللقب اكتسبه ابوه من قبله ، كما انه اطلق على التوالي (وبدون استحقاق ، على عدة اعضاء من رجال الدولة الذين اتوا بعد مدرار ، والمسعودي اطلق عليهم اسم (بنو المنتصر) . وربما كانت الرغبة في التحقيق ايضا هي التي حملت ابن خلدون على ان يخالف من سبقه من المؤرخين ويطلق اللقب على مدرار ، الشيء

(1) يعنى فى النص الذى يتعلق برواية بناء مدرار للمدينة ، اما عندما اخذ البكرى يتكلم بعد على تعاقب رجال الدولة على الحكم ، فقد جاءت عبارته كما يلى :

« وولى ابنه مدرار المنتصر بن اليسع ، ومدرار لقب » (المغرب ص 150) . فاذا نظرنا الى هذه العبارة فى ظاهرها وصريحها نجد ان البكرى قد اعتبر ان (المنتصر) هو الاسم ، وان (مدرار) هو اللقب ، وحينئذ يكون تد ابعاد عن الاستعمال التاريخى لتلقيب الملوك والامراء فى عهود ما بعد الصحابة . اما ابن عذراى فقد جاءت عبارته صريحة فى اعتبار (مدرار) اسما لرجل دولة لم يستحق اى لقب ، وذلك حين يقول : « ثم ولى بعده ابنه مدرار بن اليسع » (المغرب ج 1 ص 217) ، ثم يعيد التصريح بتخصيص لقب (المنتصر) بالاب الذى هو اليسع حين يقول : « وهو المنتصر بن سمفون المتقدم ذكره » . ثم يأتى ابن خلدون فيخالف كلا من البكرى وابن عذراى ويأتى باسم مدرار ملقباً بالمنتصر كما جرت العادة فى الاستعمال التاريخى الاسلامى حين يقول : « وولى مدرار ، ولقبه المنتصر » (العبر ج 6 ص 131) .

المترجم

الذي لم يستعمل في المؤلفات التي وصلت الى ايدينا . فإذا كانت هذه الرواية تشير الى حداد سحري حكيم ، قد اسس المدينة قبل وصول مكناسة اليها ، فكيف اذن اشتبهت قصة مدرار الاقدم بقصة مدرار حفيد ابي القاسم ؟ ويظهر بادية ذي بدء ان سبب ذلك هو انه ربما كان سميا له ، ؟ ولكن ذلك ليس بكاف لتبرير اطلاق اسم « بنو مدرار » على الدولة ، ولا لتلك المسبات التي كانت الدولة تتالم منها من اجل احترام اجدادهم الاعلين لصناعة الحدادة ، من الممكن ان تتناسب رواية مدرار مع روايتي ابي القاسم وعيسى بطريقة اخرى هي هذه ، ذلك انه اذا كان مدرار الذي اسس مدينة سجلماسة في زمن اقدم من زمن عيسى ، وكان عيسى حاكما متاصلا في الحكم هناك ، فليس من بعيد حينئذ ان مدرارا هذا كان جدا اعلى لعيسى ، وبعد عزل عيسى يمكن ان يكون ابو القاسم قد احتاج الى تعضيد قوم عيسى ، لانه لم يكن ذا مركز ثابت فيهم ، وما ثم توقف على مساعدة ابي الخطاب ، واكبر الظن انه قد زوج ابنه احدى سلائل البيت العيسوي قصد ان يكسب التعضيد التام من السكان المحليين . ذلك انه بهذه الصفة يصبح ولدها اول حاكم شرعي للدولة الجديدة في اعين السكان المحليين ، وربما لتقوية ذلك اعطى هذا الولد اسم « مدرار » الذي يستدعي الرواية القديمة ، وبهذا يمكننا ان نفسر تسمية الدولة بعد الثالث من حكامها ، كما انه في الوقت نفسه يجعل من المعقول تجنب الكنى والالقاب التي تثلم شرف الاسم القديم .

لقد كان في امكاننا ان نضع رأيا نهائيا على هذا الاساس ، لو أننا استطعنا ان نقيم هذه الافتراضات على مقياس التجربة والاختبار ، ولكننا لا نستطيع ذلك لاننا لا نعرف من كانت ام مدرار . ومن الغريب ان اول رجل من رجال الدولة ذكرت زوجته هو مدرار نفسه ، وربما كان ذلك لانه كان له ولدان باسم واحد ، والطريقة الوحيدة التي امكن بها تمييز كل واحد عن الآخر هي اضافة اسم امه اليه ، لقد كانت احدى زوجتي مدرار هي اروي بنت رستم مؤسس مملكة تاهرت المجاورة ، التي كانت كذلك دولة خارجية (1) ، وحليفا طابعيا لدولة سجلماسة .

والزوجة الاخرى ذكرت فقط باسم مجرد دون اي اشارة

(1) في موضوع انتشار المذهب الخارجي في المغرب يقول ابن خلدون ج 7 ص 24 طبعة بيروت : « لما استأثلت دولة بنى أمية كثرت الخارجية في البربر وملك ورفجومة القيروان ، وهوارة وزناتة طرابلس ، ومكناسة ، سجلماسة ، ابن رستم تاهرت » . وابن رستم هذا هو عبد الرحمن بن رستم الفارسي الاصل الاباضي المذهب ، دخل افريقيا في أوائل الفتح الاسلامي ، استخلفه ابو الخطاب المعافري الاباضي على القيروان سنة 141 ولما انهزم البرابرة الاباضيون على يد ابن الاشعث وقتل ابو الخطاب فر عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الاوسط والتحق بالاباضية هناك فبايعوه بالخلافة ، وأسس مدينة تاهرت التي اصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الرستمية الخارجية التي استمر حكمها بالجزائر 130 سنة الى ان سقطت على يد المبيدين . انظر اخبار تاهرت و أخبار الدولة الرستمية في البكري ، المغرب ص 66 — 67 ، وابن عذارى ج 1 ص 278 طبعة بيروت . ابن خلدون ج 6 ص 246 — 247 طبعة بيروت . وعن حضارة الدولة الرستمية ونظام الحكم فيها ، انظر التاريخ العام للجزائر لعثمان الكعك ص 67 ، وكتاب الجزائر لاحمد توفيق ص 20 — 21 — 22 . المترجم

الى اجدادها ، وقد صور دوسلان اسمها بالاحرف اللاتينية هكذا Elteki وذكر في حاشيته ان المخطوطات المختلفة قد قدمت اشكالا متنوعة لهذا الاسم باختلاف كبير هكذا :

(1) El Baki, Baghi Yefi, Thakia

وبالرغم عن هذا الاختلاف الكبير في النطق ، فان هذه الكتابات جميعها ليست سوى تصوير بالخط العربي لاسم غير مفهوم والذي يظهر من هذا كله هو ان اسما غير معروف قد حرف باغلاط النساخ المتأخرين ، وقد يدل هذا على ان الاسم الاصلي ربما كان اسما غير عربي ، فهل كان اذن اسما بربريا ؟ . ذلك ما لم نستطع ان اثبتنه حتى الآن ، غير ان النسخ المغربية قد اشتملت على اسماء مؤنثة اكثر شيوعا ، وحتى اذا كان اسما بربريا فمما لا شك فيه انه كان اسما غير عادي ، وقد يكون اسما لسكان اهلين ، ولكننا لا نستطيع ابدا ان نقيم الحجة على ذلك ، لاننا لا نعرف اي شيء عن لغة البرورسيين The Perorsi القدماء ، ولا عن اية لغة اخرى من لغات السود الصحراويين الذين كانوا يعيشون في المغرب الشمالي قبل البرابرة ، وهذا مع الاسف يجعلنا لا نستطيع ان نستمر في البحث اكثر ، والذي يستفاد من هذا كله هو ان الاسم اذا كان يوحى الينا بان مدرارا قد تزوج بامرأة

(1) ورد اسمها عند البكرى ، ثقية ، وعند ابن عذارى بقية ، وعند ابن خلدون في طبعة مصر : بغى . وفي طبعة الجزائر وببيروت : تقى .
المترجم

حرطانية ، فان ذلك يدل على موقف يختلف تمام الاختلاف عما هو واقع اليوم تجاه الزواج بهذا الرهط المنبوذ ، فاذا كان الرجال البرابرة في سالف الايام قد رغبوا في الزواج من النساء السود المحليين ، على الاقل لاسباب سياسية ، فان ابن ابي القاسم يمكن ان يكون قد فعل ذلك ، وابنه مدرار يمكن ان يكون كذلك قد تزوج من رهط امه ، زد على ذلك انه اذا كان السكان المحليون السود حينئذ عاملا سياسيا في أوائل دولة بني مدرار فإن النزاع بين بني مدرار يمكن ان يكون له مغزاه في هذا التناحر السلالي ، لقد فضل مدرار ابن بنت ابن رستم ، ولكن شعب سحلماسة تدخل فعضد ابن تقية ، وابن خلدون الذي يقدم لنا هذا التفصيل لم يتحدث لنا عن اي شيء أكثر من نزاع الاشخاص ، لذلك فان كل ما تقدم يحتوي على قدر كبير من الافتراض ، وينبغي ان ينظر اليه بالقدر اللازم من الاحتراس .

(4) الرواية الرومانية

لقد نسب بناء مدينة سحلماسة الى ضابط جيش روماني في تاريخ غير معين ، وقد ذكر هذه الرواية مؤلف عربي واحد لم يكن يكتب لجمهور عربي . ففي القرن السادس عشر كتب ليون الافريقي (1) الذي زار الناحية قبل اسره من قبل الايطاليين يقول :

(1) راجع التعليق رقم (1) ص 11 .

« يذهب البعض الى ان هذه المدينة قد اسسها قائد جيش روماني كان قد قاد جنوده شمال موريطانية واحتل نوميديا متوجها نحو الغرب حيث بنى مدينة سماها سيجيليوم مسه «Sigillummesse» سميت بهذا الاسم لانها وقعت على تخوم ماسة «Messa» وبتحريف الكلمة اصبحت تدعى سجماسة «Segelmesse». وقد علفت دائرة المعارف الاسلامية على هذا فقالت : « وفي هذه الرواية نجد اشارة صريحة للحملة العسكرية الرومانية التي قادها كل من سوتونيوس بولينوس وهو سديوس جيتا جنوب المغرب الاطلسي في سنة 41 ميلادية ». وجميع التعاليق الاخرى التي وقفت عليها تشير الى نفس الارتباط ، غير أن من المحتمل ان تكون هناك عدة ارتباطات تاريخية اخرى ، فبالرغم عما يثبتته بليني (1) حين يقول : « إن أول مرة حاربت فيها القوات المسلحة الرومانية في موريطانيا كانت في أيام كلوديوس (2) ، وان من المحقق ان جنودنا قد وصلت الى حدود

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 20 .

(2) هو كلوديوس بن دروسس ، احد اباطرة الرومان الذي تولى حكم الامبراطورية بعد جايوس كاليجيولا من سنة 41 الى سنة 54 ميلادية ، وكان اهم حادث وقع في عهده هو احتلاله لبريطانيا سنة 43 ميلادية . وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية (مادة Claudius) وول ديورانت (قصة الحضارة ج 11 ص 35) ان كلوديوس هو الذي الحق بموريطانيا بالامبراطورية الرومانية ، وقسمها الى موريطانيا القيصرية في الشرق ، وموريطانيا الطنجية في الغرب ، اما الاستاذ احمد صفر صاحب كتاب (مدينة المغرب العربى في التاريخ ، فقد ذكر (ج 1 ص 291 — 305 ، ان كاليجيولا هو الذى الحق بموريطانيا بالامبراطورية الرومانية ، وقسمها الى ولايتين رومانيتين جديدتين بعد أن قتل الملك بطليموس ابن يوبا الثانى ، وقضى على الثورة البربرية التى قامت في عهده بزعامة الزعيم البربرى ايدامون ، تحت قيادة القائد الرومانى سوتونيوس بولينوس المذكور فى النص الذى نقله الكاتب عن دائرة المعارف الاسلامية .

المترجم

الاطلس المغربي تتابع غزوها للاهالي المغلوبين ، وان فخر روما لم يكن فقط بقناصلها وقوادها الحربيين الذين استطاعوا ان يخترقوا سلسلة جبال الاطلس ، ولكن فخرها كان كذلك بساداتها الذين حكموا البلاد بتتابع « . - فإن هذا مع ذلك لم يكن أول استخدام للجيش الروماني في هذه الناحية ، ولكنه كان فقط أول استخدام لها بعد ان خضعت موريطانيا وأصبحت مقاطعة رومانية .

بل ان يوبا الثاني « 1 » كان اكثر من اداة طبيعية في يد أغسطس « Augustus » و كورنيليوس لوتيليوس كوسوس هو الذي سحق ثروة قبائل جدالة « Gautulians » في السنة السادسة من ميلاد المسيح . وقد كتب مومسن « 2 » الذي تحدث عن المقاطعات بمثل ما

(1) هو يوبا الثاني بن الملك البربري يوبا الاول ، ولد سنة 50 قبل الميلاد ، ولما مات ابوه منتحرا سنة 46 قبل الميلاد ، اخذه يوليوس قيصر معه الى روما وهو صبي صغير ، وهناك حظى برعاية اغسطس الذي وكل تربيته الى اخته اوكتافيا ، ولما كبر زوجه بكليوباترا الصغيرة ابنة كليوباترا ملكة مصر الشهيرة سنة 29 قبل الميلاد ، واورثه عرش ابيه على نوميديا سنة 30 قبل الميلاد ، وبعد ان اصبحت نوميديا مقاطعة رومانية عوضه عنها مملكة موريطانيا سنة 25 قبل الميلاد وفي عهده ثارت قبائل جدالة البربرية على الحكم الروماني ثورتين اثنتين ، احدهما سنة 6 ميلادية في ايام حكم اغسطس وهي الثورة التي قضى عليها كورنيليوس ، والثانية في سنة 17 ميلادية في ايام حكم تيبيريوس خلف اغسطس بزعامة الزعيم البربري تاكفاريناس ، وفي كلتي الثورتين كان يوبا الثاني يحارب مع القواد الرومانيين جنبا الى جنب ضد الوطنيين ، وقد كان يوبا الثاني عالما ومؤرخا الف اكثر من كتاب في الفن والادب والتاريخ والنبات ، ويظن ان وفاته كانت بين سنة 19 و 24 ميلادية . « Juba » Nelson's Ency. ومدنية (المغرب العربي في التاريخ) ص 286 وما بعدها و « Juba » Ency. B.

(2) Mommsen احد رجال التاريخ الكلاسيكيين الالمان في القرن التاسع عشر ، ولد سنة 1817 وتوفي سنة 1903 ، وقد اشتهر كذلك بتضلعه في القانون وفقه اللغات والمسكوكات ، شغل اكثر من منصب في استاذية التاريخ القديم والفقه الروماني ، وكتب تاريخ روما في خمس مجلدات ، نال جائزة نوبل في الادب سنة 1902 . المترجم

تحدث عن روما ، يقول : (لقد دعت الحاجة الملك يوبا الثاني اكثر من مرة لان يلتمس المساعدة من الحاكم الروماني ضد الجداليين » .

ان جنودا من هذا النوع ، لم يكونوا تحت مراقبة عسكرية لفيلق منظم ، قد اعيروا لصاحب سلطة مجاور ، ليستعين بهم على استتباب الامن في مناطق نفوذه التي لم يستطع هو بمفرده ان يسيطر عليها بالقدر الذي يلزم - جنود من هذا النوع ، ربما كانت لهم الفرصة التامة لان يؤسسوا قاعدة عسكرية أمامية ، بل ربما كان الدافع المضاعف لان يقوم هؤلاء الجنود بما قاموا به هو ما قد ثبت لديهم من قبل من دلائل التجارة الرابحة التي من اجلها كانت للبلاد شهرتها المعروفة . وفي الوقت الذي عثر فيه على قطعتين من النقود الرومانية في الصحراء عبر طريق معبدة جنوب سجلحاسة ، أصبح النشاط الروماني في هذه الناحية امرا قابلا للتصديق ، ان جميع هذه المصادر غير محددة جغرافيا بالقدر الذي تمنيناها ان تكون ، ذلك ان قبائل جدالة كانت منتشرة على مسافة كبيرة من تلك الاراضي ، كما ان العمليات العسكرية التي قام بها يوبا الثاني ربما امتدت بعض الشيء الى ابعد نقطة شرقا ، بل ان الاقرب الى التصديق ان البعثة الحربية التي قادها سوتنيوس قد اخترقت وادي زيز . وبالرغم عما ثبت من ان كلا من سوتنيوس وجيتا قد نقلتا فيما بعد لاحتلال بريطانيا ، فان النص المنقول عن بيلني يثبت ان مراقبة دائمة استمرت زمنا في هذه الناحية من

الاطلس الجنوبي ، وقد أخبرني طبيب في مستشفى أرفود بأنه قد وجدت بالقرب من هذه الناحية بعض اطلال التي تؤكد انها كانت اطلالا رومانية ، كما ان الناشرين للترجمة الفرنسية الجديدة لمؤلف ليو الافريقي قد اخبرونا بأن بعض الآثار قد وجدت في هذه الناحية ، واعتبرت وكانها اطلال رومانية ، غير ان نسبتها الى الرومان لا تزال لم تتأكد بعد .

ان ليو هو المؤلف العربي الوحيد الذي اشار الى أصل ومعنى الاسم (سجالماسة) ، وقد كانت مدينة ماسة تقع في المغرب الجنوبي على نهر يصب في المحيط الاطلسي ، وقد كانت مدينة ذات اهمية أثرية (1) .

ومن الممكن انها كانت في بعض الاوقات تسيطر على بعض

(1) ذكر الزباني في الترجمة الكبرى ان ماسة احدى المدن التي بناها البربر قبل الاسلام ، وذكر المالكي في رياض النفوس (ص 26) والدبّاغ في معالم الايمان (ص 48) ان عقبة وصل الى ماسة وبنى بها مسجداً . وقد صورها ابن حوقل في خريطته التي وضعها للمغرب تحت اسم (رباط ماسة) ، وقال (ص 68) : انها تقع بين النهر والساحل . وذكر البكري عند كلامه على وادي ماسة (ص 161) : (ان ماسة التي اضيف اليها الوادي ، رباط مقصود عندهم ، له موسم عظيم ، ومجمع جليل ، وهو مأوى الصالحين) . وذكر ابن عذارى (ج 1 ص 102) : ان المولى ادريس انتهى الى بلاد السوس الاتصى ودخل ماسة . وما ذكره البكري ذكره ابن خلدون في (ج 6 ص 138 طبعة بيروت) . وذكر في نفس ج (ص 374) : ان أبا بكر اللمتوني غزا بلاد السوس الاتصى وافتتح ماسة) . ورباط ماسة هو الذي اعتصم به محمد بن هود الماسي حينما ثار على عبد المومن الموحدي سنة 480 . وقد وضع المرحوم السيد احمد الكناسي (ماسة) في خريطته الاركولوجية للمغرب ، وسط الخط الواصل بين اكادير وايفنى على شاطئ المحيط الاطلسي .

الاجزاء من التراب المجاور ، وربما كانت تلك الاجزاء مساحة كبيرة اذا صح القول أن سجلماسة كانت تصل الى حدود ماسة ، بل أن الواقع ان امتداد ماسة الى وادي درعة يتجه بها الى ناحية وادي زيز . فماذا يعنى الاسم اذن ؟ . فهل يعنى علامة أو رمز أو انتصار على ماسة ؟ ان المعنى الشائع (1) Sigilla هو مجموعة من الرسوم او من الصور ، ولكن مفردة Sigillum الذي هو الصيغة الواردة في عبارة ليو يمكن كذلك ان يعنى به ، اثر ، سمة ، علامة ، ولكن هل سبق ان استعملت الكلمة بهذه الطريقة في تسمية بعض الاماكن الرومانية ؟ في بريطانيا الرومانية كانت توجد مدينة اطلق عليها اسم Segelocum فهل جاءت هذه التسمية من كلمة Sigillum الذي يظهر عند الفحص ان الافضل هو ان تجزأ الكلمة الى جزأين قبل الحرف (L) لا بعده ، وان كلمة Locum التى تعني المكان مقصودة في الاسم ، وتكون الكلمة Sigillum دخلت الى العربية بالتغيير الذي اعطى الاسم سجلماسة . وفي استطاعة المرء ان نعتقد ان استنتاج ليو لا يقوم على أساس محقق ، ومع اننا لا نستطيع ان نطرده عن اصول اللغات الموروثة ، فان رائحة الاشتقاق الفولكلوري تفوح منه ، واعني بذلك نوع التفسير القائم فقط على الظواهر دون البحث العلمي القائم على أساس فقه اللغات وفهمها . و ناحية الضعف في هذا التفسير اللغوي تأتي من كون

(1) يعنى في اللغة اللاتينية

الجزء الثاني من الاسم يبقى دائما غامضا ، كما ان الاستعمال الروماني هو ايضا امر مشكوك فيه ، والحقيقة ان كون لفظ « سجيل » دخل الى العربية لايساعد حتما التعليل الذي اتى به ليو ، ذلك لانه بالرغم من عدم اعتراف كثير من المعلقين فان الاسم يمكن ان يكون بكل سهولة من اصل عربي (1) .

فاذا كانت الكلمة عندها في اللغة العربية معنى ، دفتر تدوين ، او وثيقة من اي نوع كانت ، فهل يمكن أنها تشير الى بعض التقارير او البيانات عن التجارة عبر الصحراء ؟ ، وهذه ايضا طريقة لاتتناسب مع التماس اسم لمكان ، واذا صح ان لفظة

(1) جاء في القراءان لفظ (سجل) بدون ياء ، و (سجيل) بالياء ، وقد اختلف اهل اللغة واهل التفسير في معنى اللفظتين وفي اصلتهما او تعريبهما ، فقالوا في الاول (سجل) ان من معانيه : الصك ، وكتاب العهد ، والكتاب ، والرجل بلفظة الحبشة ، وقد عده الاب رمائل نخلة في كتابه (غرائب اللغة العربية) من الالفاظ المأخوذة عن اللاتينية وقال : ان اصله فيها لفظ Sigillum الذي يعنى وضع الخاتم على ما قيد من العقود ، وقد رجح الاستاذ احمد محمد شاكر في تعليقه على كتاب (المغرب) للجواليقي تبعا لابن دريد ان اللفظة عربية . وقالوا في الثانى (سجيل) ان من معانيه ، الصلب الشديد ، وحجارة كالمدر ، وحجارة من طين ، وقد ذكر البخارى في تفسير سورة هود من صحيحه ان معناه (الشديد الكبير) ، وعلى هذا المعنى يكون عربيا أصيلا كما هو مذهب أبى عبيدة ، أما في تفسير سورة الفيل من صحيحه ايضا فقد روى ان ابن عباس قال : (سجيل من سنك وكل) وعلى هذا يكون دخيلا في اللغة العربية من الفارسية ، والى ذلك ذهب الجواليقي تبعا لابن قتيبة والازهرى ، مفسرا لفظتى سنك ، وكل الفارسييتين بمعنى حجارة وطين ، وبهذا المعنى ذكرها المسعودى عند كلامه على قصة الفيل في مروج الذهب كما سينقله الكاتب عنه فيما بعد .

المترجم

« سجيل » غامضة وقليلة الاستعمال ، وذات اصل دخيل في اللغة العربية ، فليس من المرجح ان تكون قد استعملت مرادفا لبعض الاسماء المتداولة بكثرة في اللغة العربية ، والذي يظهر أن في اللغة العربية اكثر من محمل يمكن ان يحمل عليه هذا الاسم ، فالمسعودي يحدثنا عن « حجارة من سجيل » انها « طين خلطت بحجارة خرجت من البحر » . فهل تكون الكلمة حينئذ قد استعملت لتشير الى معدن ذهبي ؟ ان شركة البحث عن معدن الذهب في سجماسة قد يكون عندها نوع استحسان لهذا الرأي ، غير ان كلمة « تبر » التي تعني في اللغة العربية « تراب الذهب » ربما كانت هي المفضلة لو اريد هذا المعنى ، وفي النهاية يبقى الجزء الاخير من الاسم غير واضح في هذه الحالة ، والذي يظهر أن هذا الاسم ليس بالاسم اللاتيني ، ولا بالعربي ، وربما كذلك ليس اسما بربريا .

(5) الرواية عن الاسكندر

نسب بناء سجماسة الى الاسكندر الاكبر ، وعن هذه الرواية يتحدث ليو الافريقي فيقول : « ان عامة الناس ومعهم أحد جغرافيينا الافارقة الذي يدعى « البكري » يعتقدون ان هذه المدينة قد بناها الاسكندر الاكبر ، لاسعاف المرضى والمجروحين من جنوده ، وهذا الرأي ليس براجح عندي ، لاني لم اعثر قط فيما قرأت على أن الاسكندر الاكبر قد وصل الى هذه النواحي » .

قد نكون مدينين بالشكر لليو لانه كان مؤرخاً نزيها لم يمنعه عدم ثقته بتلك الرواية من ان يسجلها ، ذلك لانه بالرغم من عدم ثقته بهذه الرواية فإنها بلاشك تحتوي على شيء من الصحة ، وإن كان ذلك ليس بالامر الظاهر ، فقد لا يكون هناك أي فرق بين الروايتين اللتين سجلهما ليو اذا نظرنا الى مجرد الاسم ، وحينئذ يكون قد اشتبه عليه الاسم المذكور في هذه الرواية بأشهر سمي له ، وبيان ذلك ان الولايتين الافريقيتين ، نوميديا وموريطانية ، كانتا ايام الحكم الروماني من سنة 308 الى سنة 311 ميلادية تحت نفوذ دوميتيوس الاسكندر الذي كان في حرب مع ماكسينتيوس امبراطور روما اذ ذاك ، وقد كان الاسكندر الروماني هذا قليل الشبه بسميه الشهير ، ذلك لان هذا لاقى الهزيمة في اول معركة قام بها ، ولكن من الممكن ان يكون قد استغل الوقت قبل اعلان الحرب لتأسيس حصن وملجأ وراء جبال الاطلس المنيع ، ويمكن ان يفهم هذا من عنصرين اثنين من الرواية ، ذكر الاسم «مع شيء من التغيير» وذكر الجنود ، وحينئذ تكون هذه الرواية الاخيرة تشير الى القائد الروماني المذكور في الرواية الاولى ، على ان من المحتمل أن يكون ذكر الجنود قد اريد به فقط اعطاء الصبغة الاصلية للفتاح الاعظم . واكبر الظن ان الرواية لها معنى يختلف تمام الاختلاف مع ما ذكرنا ، فالاسم «الاسكندر» يعني له في اللغة العربية «ذوالقرنين» ، الذي يمكن ان يترجم بالذي له قرنان . وهو لقب كان قد اطلق على «عمون رع» ، الإله

الذي يشبه رأسه رأس الكبش ، وعندما دخل الاسكندر المقدوني الى طيبة (1) نادى به الى كهنة عمون رع على انه ابن الاله . هذه وكثير من أمثالها من العناصر المختلفة قد أضيفت فيما بعد الى قصة الاسكندر ، تلك القصة التي اختلفت باختلاف الشعوب التي عاشت فيما بينها ، وقد تراءى الاسكندر المقدوني تحت (ذو القرنين) في القراءان ، واذا كان (عمون رع) قد أصبح نسيا منسيا في أيام ليو الافريقي ، فربما ان الاسكندر المقدوني هو الذي كان ينطرق الى ذهنه عند سماع كلمة (ذو القرنين) ، على انه ليس من البعيد كذلك ان تكون هناك بقية من اثر ديانة عمون رع ، (فكوتيي) عنده ان ذلك ما يعني بندي القرنين في هذه الناحية ، قال (كوتيي) : (هناك حجة قوية على ان اثر المصريين القدماء قد تسرب الى الصحراء من الثيبين على طريق الواحات خلال (طيبة) التي كانت مركزا لعبادة الاله عمون رع ، كما أن (كوربيوس) وكتابا ءاخرين قدماء قد علقوا اهمية كبرى على طقوس الكبش الدينية خلال قبائل الصحراء ، وقد نشر (مارتان) صورة فوتوغرافية لتمثال حجري مع رأس كبش كان قد وجد في (تمنطيت بتوات) ، كما ان نقوشا حجرية قد وجدت كذلك في

(1) طيبة ، ويقال لها ثيبة ، وطيوة قال عنها صاحب (العقد الثمين ص 10) : أنها كانت من اكبر مدائن الديار المصرية واشهرها ، ولم يزل يشاهد فيها الى الان من المعابد والآثار ما يوجب تعجب الناظرين ، وقال عن (عمون رع) انه سمى بهذا الاسم في عصر العائلة الحادية عشرة ، وانه معبود خصوصي لهذا القسم وعمومي لكافة مصر ، ومعنى (عمون رع) الشمس الخفية التي لا تدرکها الابصار .
المترجم

نواحي مختلفة من الاطلس الصحراوي بالغرب من فكيك ، وهي
تمثل رأس كبش فوقه قرص شمسي بأزائه يوروس Uroeus الذي
هو بكل وضوح (عمون رع) ، زيادة على أن أهالي وادي كير
ينسبون أبيارهم العميقة الى ذي القرنين الذي يعني من له قرنان ،
وهو الاسم الذي يعني به الاسكندر الاكبر في القراءان (1) وقد
سبق ان الاسكندر قد اعتبر تسجيذا لعمون ، الاله الذي يشبه
رأسه رأس الكبش . مما لا شك فيه اذن ان هذه الالتقاءات مع
المدنية المصرية التي توضح التشابه الغريب في فنون الري وصناعاته
قد استعملت في كلتي الناحيتين ، فإذا كان لتأثير المصريين بوجه
أو بآخر دخل في تأسيس المدينة فإن ذلك ربما يعني ان بداياتها
كانت اقدم من أيام الفاتح المقدوني ، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة
ان المصريين قد وصلوا الى هذه الناحية البعيدة غرب النيل . وأنه
لامر يستحق الاهتمام ان ينسب ليو هذه الرواية الى عامة الشعب ،
فهل يعني بذلك الحراطين ؟ ، فإن عامة الشعب ربما تشمل
- ان لم تخص - السكان الاصليين لان الطبقات الكبرى من علية
القوم كانت في الغالب تتركب من مختلف موجات الفاتحين الذين دخلوا
الى هذه النواحي في الفترة ما بين ايام أبي القاسم وزيارات ليو
الافريقي .

(1) للتحقق من الاسكندر المقدوني ليس هو المعنى بذى القرنين في
القراءان . راجع القسم الثالث من بحثنا « ثقافة القراءان والثقافة العالمية » .
المنشور في (دعوة الحق) . السنة التاسعة العدد الثاني ص 8 .
المترجم

كيف ترتبط الروايات المختلفة ببعضها ببعض

ان كلا من البكري والوزان قد اختارا ما رجحاه من الروايات التي نقلها ، وأعرب كل منهما عن اتجاهه فيما وثقه أو ضعفه من تلك الروايات ، ومع ذلك فقد كان لكل من الرجلين من حسن الادراك ما جعله يسجل من تلك الروايات حتى ما لم يحظ عنده بالقبول ، على حين أن كتابا آخرين قد رأوا وكان من واجبه أن يغفلوا كل الروايات المركبة التي لا تحوي من الضبط والإتقان ما يتلاءم مع مؤلفاتهم التاريخية ، وأغلب الكتاب المعاصرين قد رأوا ان العمل التاريخي يقضي عليهم ان يختاروا ما صح عندهم من الروايات ثم يتجاهلوا الباقي ، وليست المشكلة عندي هي ان نصحح ماصح ، ونحكم بان ما عدا ذلك هو خطأ ، فلنفترض مثلا على سبيل المقارنة ان مسافرا قام بزيارة الى باريس ، وهو يجهل كل شيء عن فرنسا ، وقد تحدث اثناء ما هو هناك ، الى عدد من الفرنسيين من مختلف الجهات ، من ديجون ، ومن أفنيسيون ، ومن أكس لاشبيل ، ومن باريز كذلك ، فربما يكون قد التقط بعض روايات ناقصة ومضطربة عن (بركندي) ، وعن مملكة الكارولجيين ، وعن فرنسا المعاصرة ، فليس الواجب بالنسبة الى مستمعيه عندما يرجع الى بلده هو ان يحققوا أي تلك الروايات كانت صحيحة عن اصل فرنسا ، وإنما يكون الواجب اذا هم قد اهتموا ان يعالجوا المسألة هو ان يصنفوا العناصر في فترات مختلفة من الزمان ، وفي مجموعة منتظمة متميزة ، ففران - مثلا - كانت نوعا ما اشهر من وادي زين ،

ولكنها وقد كانت - مثل سجلماسة - تقع في النهاية الشمالية لطريق التجارة عبر الصحراء ، قد مر عليها كثير من الاحداث التاريخية ، وامتلكها في عدة فترات من التاريخ مجموعات من الاجناس المختلفة ، لذلك فان مجموع الروايات عن سجلماسة يجعلها على ما يظهر في وضع متشابه ، ومن ثم يكون السؤال ليس فقط في أي وقت بنيت سجلماسة ؟ ولكنه كذلك في كم من مرة أعيد بناؤها ؟ متى ؟ ومن قبل من ؟ . من المرجح غالبا أن مركزا مهماً كان يوجد في وادي زيز قبل سنة 757 ميلادية ، وقد يكون هذا المركز قد دعى سجلماسة أو لم يدع ، غير ان تجمع الروايات حول هذا الاسم يشير الى أنه كان كذلك قديما ، وليس لدينا من المصادر سوى المصادر المكتوبة باللغة العربية ، والمصدر الوحيد الذي كتب بالايطالية قد كتبه هو أيضا كاتب مسلم ، ومن ثم فلم يكن من الغريب أن ستارا قد أسدل بين الخلافة الاسلامية وبين ما سبقها من حكومات ان كانت موجودة ، فباستثناء شخصيات ذات اطلاع واسع ، وحرية فكر ، مثل اليعقوبي (1) فان جميع الكتاب المسلمين قد اتجهوا الى أن لا يهتموا بوجوه النشاط التي كانت (للكفار) قبل ظهور

(1) أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب المشهور بان واضح اليعقوبي ، أحد مؤرخي وجغرافيي المسلمين في القرن الثالث الهجري ، له (كتاب البلدان) في الجغرافية و (كتاب التاريخ) ، توفي سنة 284 هـ على ما يقول ياقوت في معجم الادباء ، ويستنتج محمد صادق الذي ترجم له في فاتحة طبع كتابه (البلدان) انه عاش حتى سنة 292 .
الترجم

(المومنين) (1) .

وقد وجد عكس هذا الاتجاه نوعا ما في كثير من المؤلفات في الاراضى الفارسية واليونانية ، ولكن الروايات الاكثر قد ما لم يكن لها من حسن الحظ ما يضمن لها الاستمرار في هذه الواحات الصحراوية ، غير ان شعب سجالسة استمر يذكرها باستمرار وجود سجالسة ، وقد سجل ليو هذه الروايات في وقت كانت فيه قد هجرت من زمن بعيد ، وكان السكان الاقدمون يقيمون في قصور حولها ، ولم يحتفظ هؤلاء السكان - بطبيعة الحال - بهذه الروايات المكتوبة لديهم ، ان ليو هو مصدرنا الوحيد عن الروايتين اللتين سجلتا اعظم اقدم الآثار بالنسبة للمدينة . ويمكن للمرء ان يتساءل عما اذا كانت ليو - وهو يكتب الى جمهور ايطالي ، ويتحدث عن قائد روماني - كان فقط يحاول أن يسترضي جمهوره ويتملقه ؟ وانه اخترع القصة لاجل هذا الغرض ، قد يكون ذلك حقيقة اذا نظرنا الى النص الذي بسببه اعتبرنا هذه الروايات ، ولكن ذلك لا يصدق اذا نظرنا الى مجموع كلامه في مؤلفه بأجمعه ، وربما كان غرض ليو هو تسجيل كل ما راج حول هذا الموضوع الشامل من جزئيات الاخبار مهما صغر شأنها ،

(1) تارن هذا القول مع قول فرانز روزنثال في كتابه (علم التاريخ عند المسلمين) ، ص 130 ترجمة الدكتور صالح أحمد ، قال : (والواقع أنه لم يكن من الصعب الحصول على المعلومات التي تحتويها التواريخ الاسلامية عن الامم الاجنبية كافة) . وقال (تقبل التاريخ الاسلامى منذ بدايته تاريخ ما قبل الاسلام ، فقد الحق بسيرة الرسول تاريخ الجزيرة القديم واليمن ، والتاريخ اليهودى والمسيحى منذ الخليقة) .
المرجس

وقد يكون الباعث له على تسجيل هذه الروايات هو ادراكه لأهميتها لدى الجمهور الاوربي ، وانه لو كان يكتب لجمهور مغربي لحذفها ، وربما لا هذا ولا ذاك ، وانما أراد ليو أن يستحث شعور قرائه وكأنه أدرك أنهم عندهم تطلعا الى معرفة الاخبار الغريبة . ويمكن ان يتساءل المرء ، لماذا لم يرد أي ذكر للقرطاجنيين مع أنهم كانوا رجال تجارة ناجحة في الاقليم ؟ . فاذا كانت التجارة قد ازدهرت في هذا الوادي في زمنهم فالغالب انهم قد اتجهوا نحوه ، لذلك فان دلائل تاريخهم التجاري تجعل عدم ورود أي ذكر لهم في هذه الروايات أمرا غريبا . واذا كان وصول التجار القرطاجنيين أقرب الى الاحتمال من وصول الرومانيين الى هذه الناحية ، فهل ان صعوبة التحقق من وجود ذكر القرطاجنيين في اللغة العربية - وهي اللغة الوحيدة التي عن طريقها وصلنا الى ما وصلنا اليه من اخبار - هي التي حالت دون الوصول الى الحقيقة في هذا الشأن ؟ ربما كان الامر كذلك ، او ربما اننا لازلنا لم نحرز على السجل التام لجميع الروايات ، غير أنه ليس من المرجح أن نحظى بعد بالمزيد من الروايات بعد أن مضى من الزمان ما مضى ، ربما أن هناك سؤالا يمكن أن يطرح على احدى الروايات التي يشم منها رائحة الاشارة الى رجل قرطاجني ، ولكن لا أستطيع التكهن بما عسى أن يكون .

شيء من الاستنتاج من الروايات السجلماسية

ان رواية عيسى تمدنا باستنتاج ثبوت حكومة السود ، كما أن

رواية الاسكندر الاكبر تمدنا باستنتاج ثبوت التأثير المصري ، أما رواية مدرار فهي تنبئنا بالخبر عن وجود الحداد الحكيم الذي أدخل معرفة صناعة المعادن ، وكل هذه العناصر يمكن ان يناسب بعضها البعض الآخر بسهولة .

فدرا يمكن أن يكون هو الذي أدخل معرفة الري وجلب كذلك عبادة عمون رع ، وكيفية استخدام صناعة المعادن ، وأوجد الحكومة التي انحدر منها عيسى ، وان كنا في الحقيقة لا نتوفر على الحجة التي تجمع بين هذه الروايات ، واما رواية القائد الروماني فانها بالاضافة الى الاسم ، (عيسى) ، تشير الى حصول اتصال بالعالم الروماني ، أما عدم ورود أي ذكر للتجارة أو الذهب فانه يدل على اهتمام الروايات بالمحليات أكثر من دلالاته على عدم وجود التجارة في ذلك الوقت .

تأسيس غانة :

لننظر الآن كيف ترتبط الروايات السابقة عن تأسيس سجالماسة مع الروايات عن تأسيس غانة . ان اغلب الروايات التي يستدل بها على أصل غانة هي تلك التي تثبت ان اول دولة أسستها كانت من الجنس الابيض . واذا كانت المدينتان قد أسستا من قبل مجموعة من أصل واحد كما أشير الى ذلك من قبل ، فان هذه الروايات عن تأسيس غانة تكون ولا شك غير متفقة مع الفروض العلمية السابقة التي أثبتت أن سجالماسة أسستها دولة من أصل اسود . وقبل أن

تعالج هذه المشكلة يجب ان ننظر في الروايات عن تأسيس غانة ونحاول
تقويم أهميتها .

نسبة تأسيس غانة الى دولة من البيض (1) رواية محمود كعت :

يقول محمود كعت (1) : « واما سلطنة مل (2) ما استقامت
الا بعد انقراض كيمع سلطان المغرب كله بلا استثناء مكان ما منه .
وسلطان مل من عبيده وخدامه ووزائه . وكيمع بكاف فياء وميم

(1) هو القاضى الفقيه محمود كعت ابن الحاج المتوكل على الله
التنبكى الدعكرى السودانى كان مستشارا للامير اسكيا الحاج محمد ،
توفى سنة 1002 هجرية ، ودفن بتنبكو بجوار قبر الفقيه احمد بن الحاج
والد العلامة سيدى احمد بابا . والنص المنقول عنه هنا هو من كتابه المعنون
بـ (تاريخ الفتاش) نشره هوداس مع ترجمته الى الفرنسية بباريس سنة
1913 . راجع معجم المطبوعات العربية ص 464 . وتاريخ السودان
للسعدى ص 212 طبعة باريس .

(2) هكذا هى هنا بميم ولام مشددة ، بدون الف بعد الميم ، ولا ياء
بعد اللام ، وقد نص القلقشندي (صبح الاعشى ج 5 ص 282 — 283)
على انها بفتح الميم والف بعدها لام مشدودة مفخمة ، وياء تحت) . وهى
كذلك مرسومة في العبر ، ورسمها البكرى (المسالك والممالك ص 178)
بميم ولام هكذا (ملل) . والقصة التى يشير اليها هوبير ديشان في كتابه
(الديانات في افريقيا السوداء ص 123 الترجمة العربية) عن اعتناق أمير
قبائل الماندانك (Mandinque) للإسلام هى عين القصة التى ذكر
البكرى انها كانت سبب اسلام ملك (ملل) ، الشيء الذى يدل على
أن البكرى قصد باسم (ملل) مالى ، وفى تسمية ابن خلدون (العبر ج 6
ص 413) لاول ملك اسلم من ملوك مالى باسم (برمندانة) دلالة واضحة على
ذلك ، فالاسم (برمندانة) جاء ولا شك من اسم الشعب الماندانج ، والماندانجو
الذى يقول الدكتور محمد عوض محمد (السلالات الافريقية ص 54) انه
الشعب الذى يتمثل في جمهورية مالى اكثر من سواها . المترجم

وعين مفتوحات معناها في لغة وعكري (1) ملك الذهب ، كيهو ،
الذهب ، ومع ، الملك ، وهو سلطان عظيم ، وأخبرني بعض الموثقين
عن فقيه قاضي ما سنة ألفم أيد الماسيني ، أن كيمع من الملوك
الاولائل ، وقد مضى منهم عشرون ملكا قبل ظهور رسول
الله (ص) ، واسم بلده قنب ، مدينة عظيمة ، وكان انقراض
دولتهم في القرن الاول من الهجرة النبوية ، وحدثني بعض السلف
ان آخرهم كنسعى بكاف مفتوحة فنون مكسورة وسين مهملة ،
وعين مفتوحة قبل ياء ساكنة ، وهو الملك في زمان رسول
الله (ص) . وله بلد اسمه كرنكم ، وهو مسكن امه ، وهي
الان بقيت عامرة . .) وبعد ان اتى بشيء من التفاصيل عن عظمة
مملكة كيمع قال : (ثم افنى الله ملكهم وسلط ارذالهم على كبرائهم
من قومهم واستأصلهم وقتلوا جميع اولاد ملوكهم ، حتى يبقروا
بطون نسايم ويخرجوا الجنين ويقتلهم ، واختلف اي قبيلة كانوا
منها ، قيل من وعكري وقيل من ونكر ، وهو ضعيف لا يصح
وقيل من صنهجة ، وهو اقرب عندي . لانهم يقولون في نسبهم
اسكم صوب ، بهمزة مفتوحة فسين مهملة ساكنة ، فكاف مضمومة ،
فمين مضمومة وهو حم في اصطلاح سودان لقبا . والاصح انهم
ليسوا من السوادين والله اعلم . وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولا

(1) وعكري ، كما يقول كمت (تاريخ الفتاش ص 24 — 25) ، اسم
قبيلة منسوبة الى جدها وعكري ابن براس ، وهي بواو مفتوحة وعين
ساكنة وكاف وراء مضمومتين فياء ساكنة .
المترجم

يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم ان يأتي بصحة شيء من امورهم يقطع بها ، ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه « (1) .

(2) رواية عبد الرحمن السعدي (2)

أما عبد الرحمن السعدي فروايته في الموضوع اخصر واقل وضوحا من رواية كعت ، وهو متفق معه في النقطة الاساسية التي نحن بصدها ، وليس من البعيد ان يكون قد تأثر به حين يقول « . . . وكميع هو الذي بدا السلطة في تلك الجهة ، ودار امارته غانة ، وهي مدينة عظيمة في أرض باغن ، قيل أن سلطتهم كانت قبل البعثة ، فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا ، وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكا ، وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكا ، وهم بيضان في الاصل ، ولكن ما نعلم من ينتمي اليه في الاصل ، وخدامهم عكريون ، فلما انقرضت سلطتهم خلفها في السلطنة أهل مل وهم سودان في الاصل » .

لقد أتخذت هذه المستندات مرارا لتشير الى أصل بربري لدولة غانة ، كما اشار الى ذلك محمود كعت ، ولكن التفسير الاكثر

(1) آثرت النقل عن الاصل العربي مباشرة ، لما احتوى عليه من ضبط الاسماء بالنص على حركاتها : خصوصا وقد تعرضت هذه الاسماء لكثير من الخروج عن اصلها بسبب كتابتها بالحروف اللاتينية ، واذا لاحظ القارئ بعض الاختلال في القواعد والتعبير فانما ذلك الاصل .

(2) هو عبد الرحمن السعدي بن عمران بن عامر التنبكتي توفي سنة 1066 هجرية ، والنص المنقول عنه هنا هو من كتابه (تاريخ السودان) ، نشره هوداس بباريس سنة 1901 ، راجع معجم المطبوعات المترجم

شيوعا هو أن الدولة الاولى قد أسسها يهود قورينيون (1) أو يهود سوريون ، غير أن هذا القول ليس أكثر من تخمين وهمي ولو انه صدر من رجل عارف ، وقد نوقش بما له وما عليه ، فليس لنا من داع للاهتمام به هنا ، يعترف محمود كعت بأن الروايات كانت بعيدة عن الزمان الذي كتب فيه كتابه ، كما انها كانت غير مضبوطة ، ومن مواطن مختلفة ، الى الحد الذي لم يكن معه أي تحقيق للتفاصيل ، أما السعدي فقد خضع لطريقة التخريف في معالجته لعدد الملوك الذين حكموا البلاد ليجعله موافقا لحادث الهجرة ، ذلك الحادث الذي لم يكن بينه وبين حكم هؤلاء الملوك أي ارتباط . يعتبر محمود كعت الهجرة كأساس للتوريز ، ويجعل نهاية دولة كيمع معاصرا للنبي (ص) ، وبناء على قوله هذا لم يكن عدد ملوك هذه الدولة أربعة وأربعين ، ولكن اثنين وعشرين فقط ، فإذا اعتبرنا هذا وقلنا ان عدد ملوك اول دولة حكمت غانة هو اثنان وعشرون ، فماذا اذن كان التاريخ التقريبي لسقوط هذه الدولة ؟ عند محمود كعت ان نهاية حكم كيمع ينتهي بظهور دولة مالي ، وهي تلك الدولة المتغلبة التي يكاد يتفق على أن بدايتها كانت في القرن الثالث عشر ، وهذا يتناقض تماما مع ما اثبتته من ان آخر ملوك كيمع كان معاصرا للنبي (ص) . والذي يظهر ان كعت لم

(1) نسبة الى قورينية Cyrene احدى المدائن الخمس القديمة التي أسسها المستعمرون اليونان في الاراضي الطرابلسية في القرن السابع قبل الميلاد واليه ينسب الفيلسوف اليوناني ارسططس صاحب فلسفة اللذة والالم .
المرجم

يكن شخصيا ملما بما كتبه ابن خلدون او غير بن خلدون من
الكتاب المغاربه الذين كتبوا عن غانة (1)

وقد يكون المؤلف السوداني اختلط عليه ظهور الاسلام في السودان
بظهور الاسلام في الجزيرة العربية ، فدفع بزمن سقوط الدولة الى
الوراء ، ولكن اذا كان اثنان وعشرون ملكا فقط هم الذين حكموا
الدولة قبل سنة 1240 ميلادية فان ذلك ربما يقتضي تأسيسا متاخرا
لغانة اكثر مما هو المفروض لدى العموم ، ومتاخرا كذلك عن تاريخ
تأسيس سجل ماسة شريكته التجارية . والشئ الذي يمكن ان يكون
حلا بالنسبة الى تورينج محمود كعت ، هو ما جاء في تعليق المترجمين
(2) اللذين حدثانا ان روايات محلية كانت لاتزال تجري حتى
سنة 1913 تختلف عن رواية كعت ، وتنص على أن الكيميعيين كانوا من

(1) الذى عند ابن خلدون (العبر ج 6 ص 412 — 413) ان مملكة
غانة القديمة التى كانت اعظم مملكة سودانية مجاورة للبحر المحيط ،
ضعف ملكها ، وتلاشى امرها ، باستفحال امر المثلثين الذين (عبروا السودان
واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الاتاوات والجزى وحملوا الكثير
منهم على الاسلام فدانوا به) . وقد حدد ابن خلدون عند كلامه على دولة
المرابطين فتوحات ابي بكر اللمتونى للاراضى السودانية ب 453 هـ
(1061 م) ، ولكنه في خبره عن ملوك السودان ، حيث كانت اغلب اخباره
عنها مستقاة من روايات شفهوية ، لم يحدد اى تاريخ لبداية مملكة اهل صوصو
الذين تغلبوا على اهل غانة (واستعبدهم واصاروهم في جملتهم) كما يقول
كما انه لم يحدد كذلك اى تاريخ لبداية مملكة مالى التى استقطت بدورها
مملكة صوصو واستولت على جميع ما كان لها ولغانة من الممتلكات . وقد
ذكر هوبير ديشان ان بداية ظهور امبراطورية مالى كانت في القرن الثالث
عشر ، وحدد رولاند اوليفر وجون فيج (موجز تاريخ افريقيا ص 98) هذه
البداية بسنة 1230 م .

المترجم

(2) هوداس ودولافوس

الجنس الاسود ، وانهم هم الذين اسقطوا دولة البيض ، فهما يؤكدان : « انه بناء على روايات لا تزال تجري في السودان ، فإن دولة من الجنس الابيض كانت حقيقة موجودة قبل الهجرة ، وان عاصمة هذه الدولة كانت هي غانة في ناحية وآكتا ، وان هذه الدولة قد سقطت في القرن الثامن الميلادي على يد قبائل السونينكة السود الذين كانوا رعاياهم وعبيدهم ، والذين ربما قد دخلوا في حرب بعد ان احرزوا على السلطة الكاملة مع المرابطين في القرن الحادى عشر ليروا اماراتهم وقد اصبحت اثناء القرن الثالث عشر منضمة الى بعضها بعضا ، اولاً ، في مملكة هي مملكة صوصو السونينكية على الجنوب الشرقي من كاتياك ، ثم في مملكة الماندنك التي تم تكوينها في هذه الفترة حوالي سنة 1240 ، وهكذا تختلف هذه الروايات الشفوية المحلية مع ما اثبتته مؤلفنا محمود كعت ، فهو يثبت ان الكيميين كانوا امراء من الجنس الابيض ، وكانوا يقيمون في واكدو ، على حين أن هذه الروايات تثبت على العكس من ذلك ان امراء الجنس الابيض بالضبط هم الذين سقطوا على يد كيمع الذى كان حينئذ ملكا لو اكدو والذى نقل عاصمته الى غانة التي كانت مقر حكم دولة البيض ثم استبدلها هو بعاصمة ملكه . ولكن من المؤسف ان مترجمي تاريخ الفتاش لم يسجلا هذه الروايات الشفوية بنصها الحقيقي ، ولم يثبتا مصدرها ولا قاما بتحليلها بمثل ذلك الاهتمام الذى اعطياه لمؤلف كعت ، لذلك فنحن لانميز بين ما هو من انتاجهما الخاص ، وما هو من اصل الروايات في تلك المعلومات

التي يشملها التعليق ، ومن ثم فهو في الحقيقة لا يساوي الا تعليقا ،
ومع ذلك فان علينا في اللحظة الحاضرة ان نقنع بما امدانا به .

إن اعتبار دولة الكيمعيين هي الدولة الثانية لا الاولى لغانة يجسم
لنا مشكلة تفاصيل سقوط الدولة الاولى ، فما لا شك فيه ان مالي
لم تقم غانة مقام عاصمتها الاولى ، وانما جعلتها فقط مكان شرف
لملوكها في المملكة ، وعلى هذا يترجح ان استئصال الخط القديم كان
من عمل الكيمعيين لا من عمل ملوك مالي ، على ان المشكلة لا تحدث
بالنسبة الى رواية السعدي ، ذلك لان زمان حكم الاثنين والعشرين
ملكا بعد الهجرة يمكن ان يتناسب مع ظهور مالي ، ولكننا قد
سجلنا من قبل ذلك الاعتراض الذي يحول دون اعتبار ما قاله
السعدي شيئا صحيحا ما دام لم يقم الحجة على ثبوته ، ومهما يكن
من الامر فان الاسم او اللقب (كيمع) مشتق على ما يظهر من لغة
سودانية ، على ان هذا الاشتقاق قد يكون هو نفس الاشتقاق فيما
اذا كان اطلاق الاسم أو اللقب قد وقع اول ما وقع من قبل دولة
بيضاء استعملت لغة رعاياها . ان اهمية اشتقاق الاسماء أو الالقاب
مضافة الى الدولة الحاكمة التي استعملتها ، هي ان اللغة اذا
تأكدت نسبتها الى أي سلالة من السلالات البشرية تنير لنا الطريق
لمعرفة اصل تلك السلالة التي شكلت الدولة ، غير ان جميع ما
أمكن ان يقال في ما نحن بصده الان هو ان اللغة بالرغم من
التأكد من نسبتها فان معنى اللقب لايزال موضع شك ، لذلك
فليس في استطاعتنا في الوقت الحاضر ان نجني كبير فائدة من هذه

المعلومات التي وصلت إلينا .

لقد كتب محمود كعت كتابه أثناء القرن السادس عشر ، وكتب السعدي كتابه في القرن الذي يليه ، فإذا كانت دولة البيض قد سقطت في القرن الثامن ، فإن أقدم هذين المؤلفين حينئذ لم يكتب إلا بعد مرور ثمانمائة سنة على الحادث ، ومع أنه كانت توجد ولا شك بعض أقدم المستندات التي ساعدت على الاحتفاظ بذكرى الدولة القديمة ، فإن كعت قد اعتمد في مؤلفه الخاص على كثير من المعلومات الشفوية المستمدة من أفواه العلماء الرواة بمثل ما اعتمد على مستندات مكتوبة ، وأنه لمن المهم أن نلاحظ أن الكتابة لم توجد في السودان إلا بعد القرن الثامن بزمان ، وهكذا لا يمكن أن نتصور وجود بعض المؤلفات المعاصرة لذلك الزمان . إن القرن الحادي عشر ، وهو القرن الذي نشطت فيه حركة اعتناق السودانيون للديانة الإسلامية ، كان ولا شك هو القرن الذي ابتداء فيه ظهور الكتابة أكثر من استخدامها كأداة للتسجيل في السودان الغربي ، وحتى لو أمكن تصور وجود بعض الكتابات المسجلة قبل القرن الحادي عشر على سبيل الصدفة ، فإن ذلك لا يمكن أن يعدو قرناً من الزمان على الأكثر ، وهكذا يكون أنه لم يصبح في الإمكان أن يكتب تاريخ دولة البيض إلا بعد مضي قرنين أو ثلاثة قرون على انقراضها . وإذا كانت الرواية قد سجلت في فترة سبقت كثيراً زمن دخول الكتابة ، فإن المخطوطة أو المخطوطات ربما تكون قد تعرضت لآثر الحو والتلاشي والضياع وتحريف النساخ ، وهكذا

تكون ستة او وسبعة قرون قد مضت قبل ان تكون النسخ الاصلية الموجودة الان قد كتبت ، على ان هذه هي ايضا بدورها قد تعرضت للتر والتمزق قبل ان تصبح الان بايدينا تامة ومترجمة (يعني ترجمة هوداس ودولافوس الفرنسية) . ان تعرض المخطوطات للمحو والتلاشي ظاهرة جد معروفة لدى المؤرخين ، وقد يقال ، انها لا تحول الابيض الى اسود ، ومع ذلك ، فذلك ما اعتقد أنها قد فعلت ا ، وان الحجة لا تأتي من النصوص ، ولكن من الوضع الذي قد ارتبطت فيه الاحداث بالنصوص الموجودة ، ذلك ان انشاء قاعدة شمالية لتجارة الصحراء في الناحية الغربية ، ربما يكون في حاجة ، ان عاجلا او آجلا ، الى انشاء قاعدة جنوبية ، فاذا كانت القاعدة الشمالية مملكة سوداء كما قد افترضنا ، وكان سكان الصحراء كذلك من أصل أسود ، فقد يكون من المسلم به ان القاعدة الجنوبية قد أسست من قبل السود ، ولكن رواية دولة البيض تقف حجر عثرة في سبيل هذا الحل ، غير انها ربما تراءت كصعوبة اكثر مما هي في واقع الامر . ان السود الصحراويين نوعا ما أقل سوادا من السود الذين هم أقرب الى الجنوب ، وربما يكونون قد وصفوا من قبل اعقابهم سكان الصحراء المنبسطة وصفا قد فهم منه فيما بعد انهم بيض ، وعلى سبيل المقارنة يمكننا ان ناتي بالثال التالي : فلو ان عبارة ل احد سكان الاقاليم الاسكندنافية ورد فيها وصفا لشخص من سكان البحر الابيض المتوسط بأنه (أسمر) ، وكان المؤلف الذي ورد فيه هذا الوصف

قد خضع لنفس الظروف التي خضع لها المؤلف الذي ورد فيه وصف سكان الصحراء لاسلافهم الاولين بانهم (بيض) لكنت النتيجة النهائية ان الرواية التاريخية الاسكندنافية ربما قد فهمت خطأ انها تشير الى جماعة من السود ، وبعبارة اخرى يمكننا ان نقول ان الدولة المؤسسة لغانة كانت من لون عيسى ، ولكن حيث ان عيسى كان منظورا اليه من قبل الافارقة الشماليين على أنه اسود ، فإن مؤسسي مدينة غانة ربما نظر اليهم من قبل السودانين على انهم بيض ، فالفرق اذن كائن في اعين الناظرين اكثر منه في الاشخاص المنظور اليهم ، فلو أن جماعة من سكان الشمال وسكان الجنوب كانوا ينظرون عن قرب الى اشخاص تتفاوت ألوان بشراتهم الدكناء ، واستعمل الناظرون ألوان بشراتهم كمقاييس للمقارنة فربما وصف الشخص الواحد من أولئك الاشخاص المنظور اليهم بعبارات تختلف باختلاف ألوان بشرات الناظرين .

وللتركيز على معقولية شيء من نوع ما جرى ، نستطيع أن نؤكد أن سجلماة وغانة ، وهما معا في الصحراء ، وقد ارتبطت احدهما بالآخرى بخط من الابيار والواحات معروف لدى سكان الصحراء دون غيرهم ، نستطيع أن نؤكد أن مواقعهما ، ووظائفهما التجارية ، وعلاقتهما التاريخية الطويلة ، كل ذلك يقدم لنا الاحتمال الراجح على انهما قد أسستا من قبل سكان الصحراء انفسهم ، واذا كانت سجلماة هي من القدم بالقدر الذي اشارت اليه رواياتها التاريخية ، وكان وجودها يفرض حدوث شريكها

التجارية ، ان عاجلا او آجلا ، فان غانة حينئذ لا يمكن ان يكون تأسيسها احدث بكثير من السنين بالنسبة الى تأسيس سجلماسة .

وهكذا نرى ان البرابر بعيدون عن ان ينالوا شرف التأسيس الذي رشحوا انفسهم له ، ذلك لانهم لم يحلوا بهذه الاراضي الا بعد ان تأسس الطريق التجاري الصحراوي بين المدينتين بزمان (1).

منهج افتراضي للتاريخ القديم لسجلماسة وغانة :

وبعد ان شارك مدرار في ثورة وقعت في بعض الاماكن غير معروفة لدينا ، - (وربما كان ذلك ممكلا الكرامانتين (2) او في بعض الواحات الصحراوية الاخرى الى جهة الشرق) - فر الى ناحية وادي زيز ، وأصبح له تاثير على سكان هذه الناحية بسبب معرفته لاستخراج بعض المعادن الخام وتحويلها الى معادن صلبة ، ثم صنع الادوات النافعة من هذه المعادن ، وبسبب ادخاله لبعض وسائل الري واستصلاح الاراضي الزراعية ، ونشره لعبادة الاله ذى الرأس الكبشي بين الاهالي ، وهكذا تكون قد نشأت مدينة ،

(1) سيشير الكاتب في سؤاله الاخير في نهاية هذا البحث الى ان كل مقرارته في هذا الموضوع قائمة على الفرض Hypothesis وقد سبق له ان نصحنا في مناسبة سابقة انه (ينبغي ان ينظر الى افتراضاته بقدر كبير من الاحتراس) .

(2) الكرامانتين « Garamantes » قبائل قديمة كانت تسكن اقليم فزان في عهود الالف سنة قبل ميلاد المسيح ، وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيرودتس اخبارهم .
المترجم

وأصبحت مزدهرة بانتشار التجارة عبر الصحراء . وقد نستنتج من هذا أيضا ان مدرارا جلب معه شيئا من تجارب سكان اقاصي الناحية الشرقية من الصحراء ، ثم ان سجالماسيين ، او سكان الصحراء الذين اشتركوا معهم في تنظيم نقل البضائع عبر الصحراء نزلوا في الجبهة الجنوبية للعمل على تنظيم صفقات من الذهب وبعض البضائع الاخرى من هناك والرحلة بها الى جهة الشمال ، وبذلك استطاعوا ان يفرضوا زعامتهم على سكان سهول الصحراء ، وبصفة تدريجية أصبح حكمهم نافذ المفعول على أراضي شاسعة من تلك النواحي ، بحيث صار لهم من نفوذ السلطان ، وكثرة المال ما استطاعوا أن يكونوا به مملكة تحت اسم (غانة) ، ومهما يكن اصل العلاقة التي كانت تربط بين سجالماسة وغانة فإن بعد المسافة بينهما اعطى لكل منهما استقلالها الذاتي الحقيقي ، ولمدة طويلة بقيت هذه التجارة محمية بالصحراء نفسها حيث كانت هذه الصحراء الواسعة مستعصية على ان يخترقها سكان الشمال او سكان الجنوب ، وفي النهاية أصبحت غانة مغمورة بزئوج السافانة ، كما أصبحت سجالماسة مملكة بربرية . والمصادر التاريخية الاولى ، لكل من المدينتين تثبت انهما كانتا معا محكومتين من قبل الفاتحين ، وهناك رواية واحدة مضطربة منحرفة هي التي احتفظت ببعض الاشارات الى لحة النسب القديمة التي كانت تربط كلا من المدينتين بالآخرى ، على ان سجالماسة ربما كانت قبل كل هذه الاحداث قد مضت عليها قرون وهي تتجر مع القرطاجنيين ، ثم

مع تجار نواحي افريقيا الشمالية الرومانية . والمسيحية الدوناتوسية (1)
ربما تكون قد دخلت الى هذه النواحي في هذه الفترة ،
وحلت محل عبادة الاله الذي يشبه رأسه رأس الكبش ، وأعيد
بناء المدينة على نمط يقترب من نمط روماني قيلا او كثيرا ،
وربما استمرت تحت احتلال احدى فرق الجيش الروماني لفترة
من الزمان ، وبانقطاع الامتدادات عن جيوشهم في هذه الناحية
بسبب تقلص مملكتهم اصبح الرومانيون الذين كانوا قد تغفلوا
داخل هذه الاراضي مندجين في سكانها ، ورجعت دولة مدرار
الى الانكماش على نفسها . وبعد هذا بزمان توترت العلاقة الى
حين مع دولة غانة بسبب ثورة رعاياها ، ولكن الدولة الجديدة
أعادت العلاقة التجارية والدبلوماسية الى سابق عهدها ، وفي
السنوات التي تلت هذا العهد مباشرة وصل جيش عربي الى
المغرب واحتله بأجمعه ، ولم تستطع مملكة سجالماة الصغيرة أن
تقف في وجهه ، وخضع سلطانها الى موسى بن نصير وجنوده ، غير
ان ذلك لم يدم طويلا حيث استطاعت المملكة ان تسترجع
استقلالها في بضع سنوات ، وحينئذ أعاد عيسى الذي
يتحدث عنه المؤرخون من مؤرخي العرب بناء المدينة في شكل
اقوى مما كانت عليه من قبل ، ووصل المنتجعون من مكناسة
الى هذه النواحي حيث اقتبلوا كحلفاء ضد العرب ، وبالرغم من

(1) المسيحيون الدوناتيسيون « Donatists » هم اتباع دوناتوس
اسقف طرجاجنة في اوائل القرن الرابع ، وهو الذي دعا الى الخروج على
رجال الكنيسة الكاثوليكية حيث اتهمهم بالضعف امام الاضطهاد الوثني
الذي قام به اباطرة الرومان ضد المسيحيين في ذلك الوقت . المترجم

ان هؤلاء المكناسيين قد تعهدوا بالولاء لسلطة مملكة الزنوج ، فانهم اقدموا على الاستلاء على الحكم بمساعدة بعض البرابرة ، والذين اتفقوا معهم في المذهب الديني ، وقد زوج المقتصب للسلطة ولده بفتاة من عائلة مدرار ، وسمي ولد اخر باسم مدرار المؤسس للعائلة ، ثم أن مدرارا الجديد هذا تزوج بفتاة من القبيلة ، كما تزوج بينت للملك مجاور ، وكلتا الزوجتين ولدت أولادا ، ووقع خصام بين أبناء الضرائر للاستيلاء على الحكم ، ولكن السجلماسيين عضدوا ابن بنت قبيلتهم ، ونجحوا في تنصيبه حاكما على رأس الدولة ، وكان هذا في الوقت الذي اصبح فيه سكان السود من بقايا مملكة الزنوج القديمة مبعدين عن الشؤون السياسية لسجلماسة ، وبعد أن مضى جيل من الزمان على هذه الاحداث ، هزم المكناسيون من قبل جماعة أخرى من برابرة زنانة ، حيث تعاقبت على المدينة مرة اخرى سلسلة طويلة من حكام البرابرة المغيرين .

وهكذا أصبح السكان الاصليون يرزحون تحت ثقل هذه الغارات ، وظلوا حيناً من الزمان يعيشون كطبقة ثانوية اشبه بالعبيد منها بالاحرار . وقد كان لاحدى الغارات البربرية التي اكتسحت سجلماسة اثرها العميق في غانة ، وتلك هي حركة المرابطين التي هاجمت غانة أولا ، ثم رجعت جانبا واحتلت سجلماسة حيث ظلت تحت حكمها اربعة عشر سنة قبل ان تستولي على غانة ، وكانت سجلماسة هي عاصمة المرابطين اولا ولكنهم نقلوا العاصمة في الاخير الى مدينة مراكش ، وحولت التجارة من

الجنوب الى العاصمة الجديدة ، وبهذا بدأت سجلماة تتأخر تدريجيا ، وبما ان المرابطين لم يكونوا قادرين على مراقبة جمع الذهب في الجنوب ، فان هذه التجارة قد رجعت الى الايدي التي حذقتها احسن ، وبذلك استعادت غانة نشاطها من جديد ، ولكنها حالما اصبحت محكومة من قبل احدى حكومات عبيدها ومواليها ، وهي ملي ، وبهذه الحكومة التي أسست نظم الحكم على أساس التعاليم الاسلامية ظهرت صورة جديدة للتاريخ السوداني .

السؤال الأخير

ربما نكون قد استطعنا ان ننمي فهمنا للمسألة بهذه الطريقة ، غير ان ما استطعنا ان نظهره من بعض الحقائق المضبوطة ليس الا شيئا قليلا بالنسبة الى المجهود المبذول ، وربما كان ذلك ناتجا عن تعقد المشكلة ، وان كل المقررات التي نحصل عليها من مثل هذا النوع من مادة البحث ينبغي ان تعتبر من قبيل الفرضيات ، غير ان الفرضيات هي دائما اهم وسائلنا وحوافزنا المنشطة في طريق البحث العلمي ، فما هي الوسيلة التي يمكن ان تختبر بها هذه الفرضيات ؟ ان الاجوبة على ما يظهر ليست في باطن الكتب ، قد يكون في استطاعتنا ان نقف على مخطوطات لا تزال مجهولة لدينا ، او نجتمع معلومات جديدة من مصادر قديمة ، ولكن وسائل التحقيق التي لا تقبل الشك تعوزنا مع ذلك ، ذلك ان هذه لا توجد الا في الاثريات ، واذا كانت الاثريات لا تستطيع ان تمدنا بالاجوبة

على ما تضعه علينا اقل تفاصيل الروايات التاريخية ، فانها ولا شك تستطيع أن تثبت او تنفي التأثير الروماني او المصري ، ان موقع سجلماسة معروف ، ولكن يد التنقيب لم تصله ، وان أحد أسباب عدم الاعتناء بالتنقيب عن الآثار في خرائب سجلماسة وهو ولا شك يكمن في الاعتقاد بأنها ليست أقدم من التاريخ الاسلامي ، على ان احتمال وجودها في زمن اقدم من ذلك يزيد من اهميتها كموقع أثري . وعلى العكس من ذلك فان موقع غانة غير معروف ولكن المنتقبن عن الآثار يعتقدون ان قومي صلاح هو موقع المملكة القديمة ، ومع ذلك فانهم لازالوا لم يحرزوا على أي شيء لما قبل تاريخ الاسلام ، كما ان هوية الموقع لاتزال كذلك غير معينة ، وان التنقيب المستمر سيزودنا بأحسن القواعد التي تمكننا من ان نقرر ما اذا كانت (قومي) تشير في الواقع الى شيء مما تحتوي عليه النصوص الغربية ، ولو قدر ان اكتشفت بعض منتجات الانسان في اقدم دولة لغانة ، فان اعمال التنقيب في سجلماسة ربما تكون حينئذ ذات فائدة ، ليس فقط لفائدة سجلماسة وحدها ، ولكن كذلك لتزويدنا من فهمنا للعلاقة التجارية التي كانت لها مع زميلتها التجارية في الجنوب ، بل أكثر أهمية من ذلك تنير السبيل لفهم العلاقة التي كذلك لسجلماسة مع بعض شعوب البحر الابيض المتوسط ، وهي شعوب اسست قواعد كتابة تاريخها على أساس علمي ومضبوط ، وان ذلك ربما يؤكد كتابة تاريخ السودان ذات الصلة ببعض التوريات التي لا تقبل الشك .

تم الطبع بتاريخ 16 ذى الحجة 1395
بمطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء

فهرس الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
8	4	هويرينكا	هوزينكا
	3	فالرواية	فالروايات
	10	الرواية	الروايات
9	11	فكوتبي مثلاً قد كتب يقول: ان سجلهامة قد أسست في تافيلالست 58 — 757 كانت اعظم طريق ...	فكوتبي مثلاً كتب يقول : ان سجلهامة قد أسست في سنة 757 وموريسس لومبارد يؤكد قائلاً ان سجلهامة التي تأسست في تافيلالست سنة 58 — 757 كانت اعظم طريق ...
19	6	سلالسى	سلالى
	6	يرى السؤال	يرى أن السؤال
20	5	فأما البرابرة	فأما ان البرابرة
25	12	ان يسيطرون	ان يسيطروا
27	10	ولده	ولده
33	11	الخارجى	الخارجى
37	8	طبيعية	طبيعة
38	19	تبت	ثبت
39	2	اطلال	الاطلال
40	15	نعتقد	يعتقد
43	20-19	يعنى له فى اللغة	يعنى فى اللغة
44	2	نادى به الى كهنة	نادى به كهنة
44	8	ينطرق	يتطرق
49	4	الغربية	الغربية
53	7	بدا	بدأ
63	4	قتيلا	قتيلا
	17	المؤرخون	المتأخرون

صدر عن



دار الثقافة

- التراجم كمنموذج - الدكتور حسن المنيعي
- من ادب الدعوة الاسلامية - الدكتور عباس الجراري
- في الشعر السياسي - الدكتور عباس الجراري
- الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحي - الدكتور الجراري
- مناهج البحث في اللغة - الدكتور احسان تمام
- دفنا الماضي - الاستاذ عبد الكريم غلاب
- الحضارة المغربية عبر التاريخ - الاستاذ الحسن السائح
- الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية
الدكتور ابراهيم السولامي
- روضة التعريف بالحب الشريف مجلدان
الاستاذ محمد الكتاني
- العصبية والدولة - الدكتور عابد الجابري
- المغرب في طريق الاستقلال - الاستاذ محمد العربي الخطابي

مطبعة النجاح الجديدة

الدار البيضاء